تجليات كليلة ودمنة في الأسد والغواص

إعداد

د. فرج علام

مدرس بقسم اللغة العربية

كلية الآداب، جامعة الوادي الجديد

DOI: 10.21608/jfpsu.2021.69505.1063

تجليات كليلة ودمنة في الأسد والغواص

ملخص البحث

كان لنقل كليلة ودمنة من الهندية إلى الفارسية ومنها إلى العربية أثر كبير في الأدب العربي، وقد تجلى هذا الأثر في عدد من الإبداعات التي تأثرت بكليلة ودمنة شعرا ونثرا، منها الصادح والباغم لابن الهبَّارية، وحكاية النمر والثعلب لسهل بن هارون والأسد والغواص لمؤلف مجهول وغير ذلك من الكتابات التي تأثرت بكليلة ودمنة، بل كان له تأثير في آداب الأمم الأخرى التي تُرجم إليها من العربية كما في حكايات لافونتين، بل ظل تأثير كليلة ودمنة حاضرا بصور مختلفة منذ نقله ابن المقفع وإلى الآن. ويسعى هذا البحث إلى النظر في مدي العلاقة التي تربط بين كليلة ودمنة وكتاب الأسد والغواص، والبحث عن أشكال هذه العلاقة ومداها كما وكيفا، وتناول شبكة العلاقات بين الكتابين، من خلال عدة محاور تشكل في النهاية كلا متكاملا مترابطا ومتجانسا ومتدرجا، بما يبرز أثر "كتاب كليلة ودمنة" في كتاب "الأسد والغواص". وقد تجلت هذه العلاقات في عدد من الصور بينهما وهي: مدخل عام حول قصص الحيوان، عتبات النص، مقدمة الكتاب، البنية الكبرى، تشابه القيم، حوار النصوص، التشابهات اللغوية، التشابه في المسكوت عنه. وهذه الصور المتعددة من العلاقات التي يتناولها البحث يتجلى من خلالها مدي تعالق نص الأسد والغواص بكليلة ودمنة، مستخدما في ذلك الموازنة بينهما لتحقيق ما يتغياه البحث.

الكلمات المفتاحية: السرد، الحكاية، البنية، العتبات، القيم، المسكوت عنه. الموازنة.

Intertextualities between "Kalīla and Dimna" and “The Lion and The Diver"

By
Dr. Farag Allam
Faculty of Arts, New Valley University

Abstract

The interpretation of "Kalīla and Dimna" from Hindi to Persian and from there to Arabic had a significant impact on Arabic literature, which was manifested in several brilliant texts that were influenced by "Kalīla and Dimna", poetry-wise and prose-wise, including "Al-Sadeh and Al-Baghim" by Ibn Al-Habariya, "The Tiger and The Fox" by Sahl bin Harun, and "The Lion and The Diver" by an unknown author.

This research addresses the network of intertextualities between Ibn al-Muqaffa's "Kalīla and Dimna" and "The Lion and The Diver" of an Unknown Author, through several perspectives, creating an interdependent, homogenous, and coherent continuum which highlights the influence of "Kalīla and Dimna" in "The Lion and the Diver". These intertextualities were demonstrated in a number of aspects in the two texts. They were discussed through several approaches: a general introduction on animal fables, paratext, introduction to both of the texts, the overall text structure, the resemblance of values, the dialogue of texts, the linguistic similarities, the similarities between the subtexts .

Additionally, the author approached this study by the gradual and transitional discussion from general to specific, and from the largest to smallest. Through this nexus, the strong intertextuality between "Kalīla and Dimna" and "The Lion and The Diver", was evident through contrast and comparison, as it is the best way to achieve this research.

Keywords: narration, story, structure, paratext, values

مقدمة البحث

أسهمت الظروف السياسية التي عاشها ابن المقفع أيام أبي جعفر المنصور في أن يسعى إلى مواجهة ما لمسه من جور وعسف بشكل متعقل فكتب الأدب الكبير والأدب الصغير وكتاب الصحابة وترجم بعض الكتب عن ملوك الفرس ونظم حكمهم ثم جاء كليلة ودمنة بما يشبه الضربة القوية، وقد وصلت الرسالة إلى أبي جعفر المنصور فكان فيها مقتله. وربما كانت هذه الظروف ذاتها مع اختلاف الزمن التي عاشها صاحب الأسد والغواص (في نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس كما ذكر المحقق د. رضوان السيد ويرى أنه عاش في كنف الدولة السلجوقية على الأغلب)، ويضاف لذلك أن العدو كان من الداخل والمتمثل في فساد البطانة، وفي وجود أعداء الخارج آنذاك (الصليبين والمغول). ولعل هذا التشابه في الظروف كان مدعاة لأن يتأثر صاحب الأسد والغواص بكليلة ودمنة.

ومن أبرز أسئلة البحث:

١. ما مدى شيوع قصص الحيوان في تراثنا وما أثر نقل كليلة ودمنة للعربية؟
٢. ما مدى التشابه في عنواني الكتابين؟
٣. مدى التقارب في مقدمتي الكتابين؟
٤. ما مدى التشابه بين بنيتي الكتابين؟
٥. هل تتشابه القيم في الكتابين رغم اختلاف البيئتين؟ ومدى هذا التشابه إن وجد؟
٦. هل وجد تشابه في الأفكار بين كلا الكتابين وما مدى هذا التشابه؟
٧. هل توافرت بعض صور التشابه اللغوي التي تؤكد اطلاع الأسد والغواص على كليلة ودمنة؟
٨. ما المسكوت عنه في الأسد والغواص ويبدو منسجما فيه مع كليلة دمنة، ومدى دلالته على وجود التأثر؟

وقد عرض للباحث عدة صور لتناول شبكة العلاقات بين الكتابين، ولكني وجدت أن الأنسب أن تكون محاور البحث كما يلي: تمهيد ويتناول معرفة الآداب العالمية لقصص الحيوان والأثر العظيم الذي خلفه كليلة ودمنة في الآداب العالمية، ٢-عتبات النص، ٣- مقدمة الكتابين، ٤-البنية الكبرى، ٥-تشابه القيم، ٦-تشابه الأفكار، ٧-التشابهات اللغوية، ٨-التشابه في المسكوت عنه. وهذه الصور المتعددة من العلاقات التي يتناولها البحث يتجلى من خلالها مدي تعالق نص الأسد والغواص بكليلة ودمنة. وقد راعيت

في تناول عناصر البحث التدرج والانتقال من العام إلى الأقل عمومية، ومن الأكبر إلى الأصغر، كما راعيت الترتيب المنطقي فالكلام في البداية عن السرد المتعلق بقصص الحيوان وشيوعه وعلة اللجوء إليه منذ ظهور كتاب كليلة ودمنة ثم ما شاع في أدبيات الكتابة السلطانية، ثم انتقلت إلى بداية العلاقات من خلال عتبات النص ثم يأتي النظر في مقدمتي الكتابين منطقيا ثم يأتي بنى النص أي ما يتصل بعموم النص في كليهما ثم ترد القيم العامة المتشابهة والبارزة في كلا الكتابين وهي قيم تتردد بوضوح في ثنايا الكتابين ويكاد يتمحور الكلام حولها ثم يأتي الانتقال إلى أفكار جزئية متشابهة بين الكتابين منطقيا، ويتم الانتقال إلى تشابهات جزئية تتصل بعبارات وتراكيب وصيغ وهي نطاق أضيق من الفكرة والبناء اللغوي من صميم ألفاظ الكتابين ثم يكون الانطلاق نحو المسكوت عنه في نهاية البحث منطقيا؛ لأنه قد تبين ما هو كائن بالفعل ومن ثم يمكن استجلاء ما لم يظهر في كلا الكتابين وسُكت عنه، فأكون قد انطلقت من العام للأقل عمومية ومن البدايات إلى النهايات، ومن الأفكار ذات العمومية إلى لغة النص وصولا إلى ما هو مسكوت عنه في الكتاب الثاني متشابها مع الكتاب الأول.

والموضوع جدير بالدراسة لأن كلا الكتابين له قيمته الحضارية والأدبية، ولم أعثر على دراسة تتناول العلاقة بينهما إلا ما أورده المحقق من بعض إشارات للتشابه بين الكتابين في بعض المواضع،

ومن الدراسات التي تتصل بالعلاقة بين الكتابين في بعض جوانبها دراسة للدكتور عبد العزيز شبيل بعنوان: التناص والتراث العربي بين كليلة ودمنة والأسد والغواص، (حوليات الجامعة التونسية، العدد٥٢، يناير٢٠٠٧م). وكان هدف البحث دراسة أحد أوجه التناص المتعددة بين الأثرين وهو دراسة الشخصيات كما يقول د. شبيل: "ولذلك ارتأينا الاقتصار على جانب واحد من الدراسة التناصية للأثرين وهو جانب الشخصيات، نظرا لثرائه أولا، ولأنه يسمح لنا بتحليل بنيوي وقراءة مؤولة في آن" ص ١٤٤. وهو بذلك يركز على زاوية محددة ينبني عليها بحثه كما حددها، وليس تناول العلاقات المتعددة بين الكتابين. وهناك دراسة أخرى للدكتور خولة شخاترة بعنوان: كليلة ودمنة والأسد والغواص: ملامح من علاقة المثقف بالسلطة (مجلة البلقاء للدراسات والبحوث، المجلد١٢، العدد١، رجب ١٤٣٨هـ، أغسطس ٢٠٠٧م) وقد جاء في ملخص بحث د. خولة شخاترة: "تعالج هذه الدراسة ملامح من علاقة المثقف بالسلطة في كليلة ودمنة والأسد والغواص ..." ص ١٧٩ وهناك دراسة د. وضحا محمد عواد المحارب، جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني بين الاستبداد والاغتراب، مجلة جامعة الناصر، العدد الخامس، المجلد

الأول، يناير، يونيو٢٠١٥م. ولكنها درست الأسد والغواص ضمن كتب أخرى وواضح من العنوان جوهر الدراسة. ويمكن ملاحظة أن هذه البحوث تركز على جانب الشخصية في الأثرين وخاصة في علاقتها بالسلطة. كما أن هناك بعض المقالات حول بعض جوانب العلاقة بين الكتابين لكنها لا تقدم تصورا لها شاملا بطبيعة الحال، ويغلب عليها طابع البساطة.

وقد استخدمت الموازنة والمقارنة عند تناول أشكال العلاقة بين الكتابين؛ لأن ذلك هو الأنسب لتحقيق هدف البحث وهو استجلاء شبكة العلاقات التي تجمع بين الكتابين.

١ – تمهيد

حفل تراثنا العربي بأشكال سردية مختلفة، ويلقانا ذلك في مصادر متعددة: أدبية وغير أدبية. ويمتد ذلك في عمق التاريخ الأدبي العربي، حيث نجده في العصر الجاهلي، كما في حكايات الأمثال مثلا [١] وحكايات الحيوان التي شاعت على ألسنة أهل الكتب السماوية قبل الإسلام وانتشرت لدى العرب، كما نجد ذلك بوفرة في كتب الأدب والتاريخ التي تحفل بالقصص ومنها البيان والتبيين والبخلاء وكتاب اللصوص للجاحظ، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي والمكافأة وحسن العقبى لأحمد بن يوسف الشهير بابن الداية، وكتاب غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وغيرها. وهناك كتب سرديات مطولة ولكنها تشتمل على قصص متنوعة مثل كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع من البهلوية عن الهندية إلى العربية، والنمر والثعلب لسهل بن هاورون، والأسد والغواص لمؤلف مجهول، وألف ليلة وليلة مجهولة المؤلف، والحكايات العجيبة والأخبار الغريبة لمؤلف مجهول. بينما هناك قصص سردية قصصية طويلة، قد تكون ذات قصة واحدة سواء على مستوى الموضوع أم الأحداث أم الشخصيات، مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وحي بن يقظان لابن طفيل [٢].

---

[١] - هناك أمثال وردت عن العرب وظفوا فيها طبعا من طباعه. ومن ذلك: أسمع من قراد، أحذر من غراب، أسمع من فرس، وأحزم من فرخ العقاب، وأخف رأسا من الذئب، من هذه الأمثال الشائعة التى لها حكايات: أروغ من ثعلب، وفي بيته يؤتى الحكم، وكيف أعاودك وهذا أثر فأسك.

[٢]- حول سرديات القصة الطويلة سواء أكانت قصة واحدة أم يتفرع عنها قصص صغرى يمكن العودة على سبيل المثال إلى كتاب د.مصطفى عبد الشافي الشورى، التراث القصصي عند العرب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة ذاكرة الكتابة، الفصل الخاص القصة في العصر العباسي ١٦٠:١١٧ وكذلك الجزء الخاص بالقصص المطولة١٦٣ إلى ٢٠٤. وكتاب د.مصطفى عطية جمعة،

وقد شاعت الحكايات والقصص لدى العرب كما ذاعت لدى غيرهم؛ ذلك "أن العرب ككل شعوب العالم، كانت لهم حكاياتهم وقصصهم وأساطيرهم، سواء في هذا ما أنشأوه هم أنفسهم، أو ما ترامى إليهم من قصص الشعوب الأخرى كالفرس والهند، وأن القصص كان شيئا هاما في حياة العربي القديم، بل وربما كان ضرورة اجتماعية كذلك" [١]. ومن ضمن ما شاع من هذه الحكايات حكايات الحيوان "وتعد الحكاية على لسان الحيوان نمطا من الأنماط القصصية الذائعة في آداب العالم، عرفتها إبداعا وتذوقا الثقافات والحضارات الأولى، إرثا شرعيا من المراحل الأسطورية للشعوب، فمن رحم الأسطورة ولدت، وعنها – بعد أن سقطت وظائفها الأسطورية – تطورت شكلا أدبيا – من أشكال الأدب الشعبي – متميزا وأثيرا في الآداب العالمية القديمة " [٢]

وهذا النوع من القصص الحيواني عرفه العرب كماعرفته شعوب العالم؛ إذ إن "التراث العربي– على اتساعه وتنوعه وامتداده في الزمان والمكان –حافل بهذا النوع من الحكايات، شعرا ونثرا، ترجمة وإبداعا، تحت أسماء متعددة شبه اصطلاحية، منها خرافة الحيوان، ومنها الخرافات على ألسن البهائم والسباع والطير، ومنها" نوادر من حيل الحيوان"، ومنها الأمثال، يعنون المثل القصصي، ومن ثم يمكن وصف هذا النوع من الحكايات بأنه نوع من التمثيل الكنائي Allegory[٣]

وتتسم الحكاية على لسان الحيوان بعدة سمات تميزها عما عداها من الأجناس الأدبية. "ولعل أهم ما يميز حكاية الحيوان – بين الأجناس الأدبية –أن الحيوان هو الذي يلعب الدور الرئيس فيها، دور البطولة، مثلما كانت الآلهة وأنصاف الآلهة تلعب دور البطولة في أساطير الشعوب، وخاصة أساطير الخلق والتكوين. ومما يميزها أيضا أنها تروى نثرا وتنظم شعرا، كما أنها قادرة على أن تنفذ – ببساطتها وعبقريتها الجمالية والفكرية – إلى المتلقي على اختلاف مراحله العمرية والثقافية، فهي كالأسطورة قادرة على أن "تهب كلا شيئا، حيث إن" ظاهرها لهو وباطنها حكم [٤] ولعل هذا ما أتاح لها أن تستمر حتى عصرنا وتبقى أداة رمزية طيعة لمن يوظفها.

أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي نموذجا، مركز الحضارة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م،٦٦:٦٧ ومن ٨٧إلى١٢١.

[١] - د مصطفى عبد الشافي الشورى، التراث القصصي عند العرب، ص٥.

[٢] - د. محمد رجب النجار، حكايات الحيوان في التراث العربي :"آفاق جديدة"، عالم الفكر، المجلد الرابع والعشرون، العددان الأول والثاني من يوليو، سبتمتبر، أكتوبر، ديسمبر، ١٩٩٥م ص ١٨٧م.

[٣] - المرجع السابق . ص ١٩٠.

[٤] - المرجع السابق ص ١٨٧، ١٨٨.

لقد نُقل كتاب كليلة ودمنة من الهندية إلى البهلوية ومنها إلى السريانية والعربية، "وبهذه الترجمة العربية عرف العالم فن التحدث بلسان الحيوان، فالفضل لمعرفة العالم بهذا الكتاب يعود إلى النسخة العربية لابن المقفع رحمه الله، ومنها وجدت كافة ترجمات هذا الكتاب في لغات العالم المختلفة" [١]

والكتاب ليس ترجمة وإنما هو نقل من الفارسية إلى العربية، كما ذكر د. محمد رجب النجار، ويكاد يجزم بأن الكتاب كله يكاد يكون لابن المقفع لكثرة ما أدخله عليه من تعديلات على النسخة التي ترجم منها. [٢] وهي تعديلات تحدث تغيرا جوهريا على النسخة الأصلية للكتاب بما يحقق الهدف الذي كان يصبو إليه "فلم يكتف ابن المقفع بما احتوى عليه الكتاب من حكايات في ثناياها معاني رمزية عدة بل أضاف إليها ما يخدم أغراضه، فكان الرمز السياسي هنا هو الغرض الرئيس الذي من أجله سيقت الحكايات على لسان الحيوان. فترجمة ابن المقفع لحكايات كليلة ودمنة لم تكن بغرض التعرف على ثقافات أخرى كما يحاول البعض تعليل إقبال ابن المقفع على نقل هذا الكتاب، فإذا ما صدق هذا القول على الكتب الأخرى فهو لا ينطبق على كتاب كليلة ودمنة بصورة خاصة" [٣]؛ إذ إن ابن المقفع واجه حكما عنيفا وقتها ولم يكن قادرا على أن يواجهه مواجهة مباشرة، وإلا فالنهاية ستكون محتومة؛ ولذا فضل أن يرسل بالرسالة إلى الخليفة أبي جعفر المنصور من وراء الستار" فهذا الكتاب ما هو إلا ستار اختفى وراءه ابن المقفع ليعرض به أراءه دون أن يحاسب، متعللا بسببين: الأول، بأن الكتاب مترجم، فهو ليس مؤلفه، فلم يهتم أحد من معاصريه بتتبع التغيرات التي أجراها ابن المقفع على النص البهلوي، فأي تهمة توجه إليه لا صحة لها؛ لأن الأفكار الواردة ليست أفكاره هو إنما هي نقل عن ثقافتين أخريين رغب الحكام في التعرف عليهما. والسبب الآخر: هو ورود الحكايات على لسان الحيوان فلقد وجد ابن المقفع خير معين في هذا الكتاب، فلم يجد أصلح منه ينطبق على عصره" [٤]

---

[١] - نورا محمد سعيد، كليلة ودمنة بين الفارسية والأردية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨م، ص٣١.

[٢] - د. محمد رجب النجار، حكايات الحيوان في التراث العربي ص ١٩٣ .. فهو يرى أن القول أن الكتاب مترجم عن الفارسية أكذوبة كبرى وإنما هو من وضع ابن المقفع، وأن الأبواب الخمسة المشتركة بين النسختين: العربية والفارسية لا تتشابة كثيرا للمزيد ص١٩٣. وما بعدها.

[٣] - نورا محمد سعيد، كليلة ودمنة بين الفارسية والأردية،.ص٤٩

[٤] - المرجع السابق، ص٤٩. وينقل د. عبد العزيز شبيل رأي أحد المستشرقين (ر. خوّام) الذي قام بتحقيق كتاب كليلة ودمنة وترجمته ومفسرا الاختلاف الشديد بين نقل ابن المقفع للكتاب عن الأصل المترجم منه "معتبرا ابن المقفع كاتبا عبقريا، ومبررا التشويهات الظاهرة للنص بكونها ضرورة اقتضاها سبب داخلي، فبسبب أهمية الموضوع وهو العلاقة بين السلطة والمثقفين، ولكي لا يعرض نفسه بكل تهور لأخطار حقيقية، وضع ابن المقفع الفقرات الأشد دلالة من نصه، تحت باب الترجمة، التي حشر فيها تصريحات السنة الدينية، وبذلك يجنب نفسه أي لوم.ومن جهة أخرى يرفض الباحث صفة "المترجم"، التي أُجمع على إسنادها لابن المقفع، محتجا باختلاف النص العربي اختلافا بينا عن النص الفارسي أو الفهلوي المترجم إلى السريانية ومباينته كذلك للنص الهندي. " د.

وأصبح لكليلة ودمنة أثر عظيم على الكتابات التي جاءت بعده ونحت نحوه ووظفت الرمز هروبا من المباشرة، حتى العصر الحديث "فقد كان له أثر من ناحية تفصيل القصص على لسان الحيوان تفصيلا طويلا، ووضع الحكم والأمثال على ألسنتها، وتبينت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع في عصور الاستبداد، فانتشر هذا الضرب من القول والقصص يقصدون فيه نصح الحكام بالعدل، وكأنهم يقولون إذا كانت الحيوانات تمقت الظلم وتحقق العدل؛ فأولى بذلك الإنسان إذا كان الولاة والرؤوساء يستعظمون أن يصرح لهم بنصح أو نقد، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم، وإذا كان في التصريح تعريض الحياة للخطر، ففي التلميح نجاة من الضرر" [١] بل يشير أحد الباحثين إلى هذا التأثير الواسع لكليلة ودمنة في الآداب العربية وهو يستعرض تأثير كليلة ودمنة في حكايات الكاتب الفرنسي لافونتين "ومعنى هذا أن ابن المقفع وخرافاته كان المصدر الأول لكل من جاءوا بعده من مؤلفي الخرافات سواء في الشرق أو الغرب"[٢]

وتندرج حكاية كليلة ودمنة ضمن الكتابات التي تصنف بأنها قصص حيوان في تراثنا العربي، كما في " النمر والثعلب" لسهل بن هارون، و"الصاهل والشاحج"،لابي العلاء المعري ت٣٦٣هـ، حيث تجري القصص فيها على لسان الحيوان [٣] وهي تقدم النصح للسلطان، كما تتقاطع مع كتابات أخرى تقدم النصح للحاكم بشكل مباشر إلى حد كبير وما ينبغي أن يكون عليه من الخصال وواجبه تجاه رعيته، كما في الأدب الصغير، والأدب الكبير لابن المقفع، والأحكام السلطانية، وأدب الدنيا والدين للماوردي، كما تتقاطع مع الأقوال والحكم المأثورة التي تتصل بالحاكم والمحكوم في الكتب الموسوعية، كما في الإمتاع والمؤانسة، والصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. كما أنها تتقاطع مع الثقافة الفارسية والهندية واليونانية من خلال الأخبار والحكم والأدبيات السياسية ونظم الحكم، وتتناثر الأقوال المأثورة عن الحكماء والعلماء والفلاسفة في الحكمة وسياسة الرعية وفضل النصح والصداقة والعلم

عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري: جدلية الحضور والغياب، دار محمد علي الحامي، صفاقص تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سوسة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ص٢٤٩،٢٤٨.

[١] - أحمد أمين، ضحى الإسلام، طبعة مكتبة الأسرة، ج١، ص٢٤٣

[٢] - د.مجدي شمس الدين، القص بين الحقيقة والخيال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية، ١٩٩٠م. ص١١٠. وهو يشير إلى تأثر لافونتين الواضح بكليلة ودمنة بقوله: " فقد اقتبس لافونتين عشرين فابولا من فابولات كليلة ودمنة، وضمنها الجزء الثاني من خرافاته على ما صرح به في مقدمة الجزء الثاني، وكان الكتاب قد ترجم إلى الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر،واستقطب اهتمام والدارسين والأدباء والنقاد في فرنسا" ص ١٠٩.

(٣)- الصاهل والشاحج أي الفرس والبغل، وهو يقدم من خلاله وصفا دقيقا لأوضاع المجتمع آنذاك وطبقاته، وهو مملوء بشواهد الشعر. والكتاب كله قصة واحدة مترابطة الفصول والمشاهد. سنة ٣٦٣ هجرية.

والعمل والعقل والحيلة. "وكشف هذا الامتزاج بين الثقافة العربية الإسلامية وثقافات الأمم القديمة في نموذج الآداب السلطانية عن مدى انفتاحية الثقافة الإسلامية، وانفتاحية نص الأدب السلطاني" (١)

وقد شاع في أدبيات الكتابات السلطانية أن "يستعمل مؤلفو الآداب السلطانية السرد الحكائي الرمزي لتبليغ خطابهم إلى مخاطبهم وهو السلطان، وذلك في صيغ متعددة وردت على شكل طرائف تاريخية رغم افتقارها إلى التوثيق أو مقتطفات تراثية من الثقافات الفارسية واليونانية والهندية والصينية أو على شكل قصص يكون الحيوان هو بطلها الرئيس وهي في مجملها حكايات رمزية لا يهم الكاتب السلطاني إن كانت واقعية أو خيالية؛ لأن هدفه ينحصر في وضعها ضمن استراتيجية تحفيزية للسلطان من أجل استخلاص العبرة منها والاقتداء بها " (٢)

ويلاحظ أن هذه الأقوال والحكم والأخبار والقصص التي تتناثر في كتب الموسوعات والأدب والأخبار والسمر والأمثال وفي أدبيات الكتابات السلطانية، تأتي ضمن سياق يخدم على فكرة أو معينة؛ ولذا نجد ما يرد من قصص وأخبار منسجما ومتجانسا مع سياقه، ويجب فهمه ضمن هذا السياق؛ لأنه ربما إذا عُزِل عن سياقه فُهم بدلالة مغايرة.

ومن الجدير بالذكر أن كتاب كليلة ودمنة لا يأتي معزولا عن اهتمام ابن المقفع البالغ بالسياسة آنذاك، ويتجلى ذلك إذا وضعنا كتاب كليلة ودمنة ضمن إطار الكتب التي ترجمها أو كتبها وتتسم بالطابع السياسي فمثلا كتاب الأدب الصغير يذكر ابن المقفع في جزء منه علاقة الناس بالوالي وما يجب أن تكون عليه هذه العلاقة، وفي الأدب الكبير يجعل الكتاب مقالتين: المقالة الأولى أ- في صحبة السلطان ب- في آداب صحبة السلطان، والمقالة الثانية في الأصدقاء، (٣) وينضاف لذلك "رسالة الصحابة" وهي كما يقول د. شوقي ضيف "في صحابة السلطان وبطانته، ومن يستعين بهم في حكمه من جنده، وما

(١)- د. أحمد محمد سالم، دولة السلطان: جذور التسلط والاستبداد في التجربة الإسلامية، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٤م ص ٢١ ويشير إلى فكرة تجاور هذه الثقافات بقوله: "وفي نصوص الآداب السلطانية تنصهر ثقافة العرب والمسلمين مع ثقافة الفرس واليونان في بوتقة واحدة، وتتجاور آيات القرآن والأحاديث مع مقولات الحكماء والفلاسفة"ص٢١

(٢) إبراهيم القادري بوتشيش، علاقة التاريخ بالسيمولوجيا: التاريخ العربي الإسلامي نموذجا، سلسلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، العدد١٧٦، أكتوبر، ديسمبر٢٠١٨م. ص ١٨٠م . ولعل هذا يفسر شيوع عناوين تتسم بعدم المباشرة وكذلك تعطي معنى النور أو النفاسة في عناوين كتب الآداب السلطانية مثل "الإشارة في تدبير الإمارة" للمرادي الحضرمي، "والإشارة إلى أدب الوزارة" لابن الخطيب، وعنون ابن رضوان كتابه بـ "الشهب اللامعة في السياسة النافعة"، وعنون أبو بكر الطرطوشي كتابه بـ "سراج الملوك" واختار الحميدي لكتابه عنوان "الذهب المسبوك في وعظ الملوك"، واختار الغزالي لكتابه عنوان "التبر المسبوك في نصيحة الملوك"، وجعل ابن الحداد عنوان كتابه "الجوهر النفيس في سياسة الرئيس". د. إبراهيم القادري بوتشيش، علاقة التاريخ بالسيميولجيا. ص ١٨٠:١٧٨. وما بعدها.

(٣) - ابن المقفع، الأدب الكبير، ويأتي الجزء بالمقالة الأولى من ص ٢١إلى ٤٧. وتأتي المقالة الثانية من٥١إلى ٧٧

ينبغي له في سياسته إزاء رعيته كتب بها إلى المنصور، وكأنه يضع له دستورا للحكم" [١] . كما أنه نقل كتبا متعددة لها صلة السياسة مما لدى الفرس " ترجم كتاب "خُداي نامة" وهو في سير الملوك الإيرانيين، ... وكذلك نقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان، ونقل عنها في أنظمة الملك وتدبير السياسة "آيين نامة..." [٢]

٢- عتبات النص في "كليلة ودمنة" و"الأسد والغواص"

أ- عنوان كلا الكتابين.

عنوان العمل الأدبي بوابة الدخول إليه، حيث يميز العنوان عملا أدبيا عن آخر، ويفتح بوابة الولوج إلى فضاء النص، ويمنح قارئه إضاءة أو إشارة عما يمكن أن يحتويه العمل، فهو أول عتبة من عتبات النص، يلج منها القارئ إلى عالم النص. "وتنبثق أهمية العنوان بشكل عام من كونه عنصرا من أهم العناصر المكونة للمؤلف الأدبي، ومكونا داخليا يشكل قيمة دلالية عند الدارس، وحيث يمكن اعتباره ممثلا لسلطة النص وواجهته الإعلامية التي تمارس على المتلقي إكراها أدبيا، كما أنه الجزء الدال من النص الذي يؤشر على معنى ما، فضلا عن كونه وسيلة للكشف عن طبيعة النص، والمساهمة في فك غموضه". [٣]

ويأتي العنوان في صدارة العمل، كما أنه يأخذ مكانا بارزا ويأتي شبه متفرد في الصفحة في واجهة العمل. "يبقى العنوان علامة دالة على النص وخطابا قائما –بذاته– لكونه جزءا مندمجا في النص، وهو أيضا شبكة دلالية يُفتتح بها النص، ويؤسس لنقطة الانطلاق الطبيعية فيه، والعنوان بوعي من الكاتب يهدف إلى تبئير انتباه المتلقي، على اعتبار أنه تسمية مصاحبة للعمل الأدبي، مؤشرة عليه" [٤] وعتبة العنوان قد تفتح المجال أمام القارئ ليستشعر وجود تواصل بشكل ما مع علامات أو خطابات أخرى؛ إذ "تعد العتبة ملتقى علامات، وحوار خطابات حافلة بتوهج الذاكرة التاريخية تتكامل بشكل أخبار" [٥]

---

[١] - د شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، الطبعة العاشرة، ١٩٩٠ ص ٥١٦

[٢] - د شوقي ضيف، العصر العباسي الأول ص ٥١١

[٣] - شعيب حليفي، هوية العلامات: في العتبات وبناء التأويل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٩

[٤] المرجع السابق، ص ٩. ويمكن إبراز الدور الذي ينهض به العنوان من خلال ثلاثة عناصر أساسية هي: يسوغ العنوان التعريف بالمؤلف وبالجنس الأدبي ويميز بين مكتوب وآخر... ب-.. فهو أيضا يعين مضمون المؤلف، باعتباره نواة ومركزا لمجموع الأفكار، وعليه فالعنوان مرآة مصغرة لكل ذلك النسيج النصي... ج - يحفز العنوان على القراءة، حسب التخصص" شعيب حليفي، هوية العلامات ص١١ (بتصرف).

[٥] - د. سمر الديوب، النص العابر، دراسات في الأدب القديم، سلسلة الدراسات الأدبية، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤م، ص ٢٠٢

وأول عتبة وأبرزها يمكن أن تلفت نظرنا عند محاولة استجلاء الوشائج بين الكتابين هي عنوان كل من "كليلة ودمنة" لابن المقفع، و"الأسد والغواص" لمؤلف مجهول. ومن يتأمل عنوانيهما يمكن أن يلمس عددا من نقاط الاتصال والتشابه والتقارب بين العنوانين، أبرزها ما يأتي:

- أن العنوان في كلا الكتابين أتى مبنيا من لفظتين فقط، يربط بينهما حرف العطف "الواو"، فلم يأتِ مركبا إضافيا أو صفة وموصوفا أو أي صورة لغوية أخرى.
- أن عنوان كلا الكتابين لم يعتمد في بنائه على تركيب مسجوع، على الرغم من شيوع السجع آنذاك في كثير من الكتابات.
- أن لفظتي العنوان في "كلا الكتابين" أسماء أو صفات لحيوانات؛ فـ "كليلة ودمنة" اسمان لحيوانين من حيوانات الغابة، وهما (ابنا آوى). وفي "الأسد والغواص" يأتي "الأسد" في القسم الأول من العنوان، بوصفه ملك الغابة ورمز السطوة والهيبة والقوة والبطش والأنفة والكبرياء، وأما القسم الآخر منه، فقد نستشعر وجود بعض الاختلاف في العنوان عن "كليلة ودمنة"، حيث جاءت اللفظة الأخرى من العنوان (الغواص) ونظن –أول وهلة– أن عنصرا بشريا طرأ على العنوان مقابلا للعنصر الحيواني في الشق الأول منه، وأن العنصر البشري جاء مشاركا ومجاورا ومتقاسما العنوان مع العنصر الحيواني، (الأسد والغواص)، ولكن حين ندخل إلى متن الكتاب (الحكاية) نكتشف أن الغواص ما هو إلا ابن آوى، وهذا يعني أن اللفظتين اللتين يتشكل منهما العنوان في (الأسد والغواص) هما لحيوانين أيضا، لكن الفارق أنه في (كليلة ودمنة) كانا من النوع ذاته، وهذا يعني أن العنوان في (الأسد والغواص)، جاء مباشرا فيما يخص الجزء الأول، بينما اتكأ الشق الآخر منه على وصف إيجابي (لقب) بديلٍ للاسم وهو "الغواص" [(١)]، وكأنه أراد أن يبرز تمايز المثقف في مواجهة السلطة، بما يتسم به من سعة العلم ورجاحة العقل، وعمق الفكر، إذن الغواص هو من ذات الفصيلة التي ينتمي إليها كليلة ودمنة.
- أن الحيوانات في كلتا الحكايتين من حيوانات الغابة، لم يستبدلهما صاحب الأسد والغواص بأحد الطيور الجارحة أو الحيوانات الداجنة. كما أن هذين الحيوانين من الحيوانات اللحمية وليسا من آكلات العشب.

(١) - لما سأل الملك الغواص عن سبب تسميته بالغواص، قال: " لغوصي علي المعاني واستخراجي أسرار العلوم الخفية، ومن أكثرَ من شيء عُرِف به" الأسد والغواص ص٧٧.

- أن صاحب الأسد والغواص استخدم الترتيب ذاته الذي استخدمه كليلة ودمنة، حيث جعل صاحب العقل والفكر والمنطق تاليا لصاحب القوة والسلطة وليس سابقا عليه، وهذا يبدو منطقيا إلى حد كبير، فالأصل وجود السلطة ثم يأتي دور المثقف تجاهها. والأمر ربما هنا لا يتعلق بقيمة كل منهما أو دوره بقدر ما هو تراتب بينهما.

ولعل التشابه بين عنوان الأسد والغواص وكليلة ودمنة جاء تأثرا ببعض أبواب الكتاب الداخلية، فمثلا نجد في الباب الرابع عشر بعنوان: باب (الأسد وابن آوى)، وهو عنوان كتاب (الأسد والغواص) ذاته في تركيبه وتراتبه ولكن كل ما في الأمر أنه استبدل اللقب (الغواص) بابن آوى.

ويأتي الباب الرابع في كليلة ودمنة بعنوان (الأسد والثور) ولكن صاحب الأسد والغواص لماذا لمْ يتشابه مع هذا العنوان؟، ذلك أن الشق الأول منه يتماثل مع الشق الأول في عنوان الأسد والغواص، أما الآخر فلم يكن مطروحا فيه، وربما هذا لأكثر من سبب، منها أن الثور عنصر دخيل على الغابة وليس واحدا من بني جلدتها، كما أن علاقه الأسد بالثور كانت في بدايتها متوجسة خائفة ثم تحسنت ثم آل مصيرها إلى الموت، كما أن المشكلة في الحكاية لم تكن من الخارج وإنما كانت من الداخل ومن ثم كان من الضروري أن يكون الطرف الآخر في العنوان هو أحد أطراف الداخل وليس من الخارج.

ثانياً: عناوين الأبواب في كلا الكتابين.

يوجد اضطراب في عدد أبواب كتاب كليلة ودمنة حسب النسخة التي اعتمد عليها من يحققون الكتاب، فقد تعددت نسخه بشكل لافت للنظر، وهو ما ذكره عدد من محققي الكتاب أو دارسوه منهم عبد الوهاب عزام محقق الكتاب، ومحمد حسن نايل المرصفي، كما أشار إلى ذلك د. محمد رجب النجار حين كان يعرض لقضية هوية الكتاب الحقيقية [١]

[١] - للمزيد حول هذه الفكرة انظرد. محمد رجب النجار، حكايات الحيوانات في التراث العربي ص ١٩٣.

م	كليلة ودمنة [١]	الأسد والغواص
	مقدمة على بن الشاه الفارسي [٢]	(لا توجد مقدمة موازية في كتاب الأسد والغواص)
١	باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع	باب وصف الملك الحازم
٢	باب توجيه كسرى أنوشروان برزويه إلى بلاد الهند.	باب ما يجب على الرعية من نصيحة الملك، وأن ذلك ينفع الناصح كنفعه للمنصوح، وأن أمر المَلك والرعية متعلق بعضه ببعض وفيه دلالة على أن نصحه للملك نصحه لنفسه.
٣	باب برزويه الطبيب من كلام بزرجمهر بن البختكان	باب فيما يحتاج إليه ذو الفضل من المدارة لأصحاب الملوك.
٤	باب الأسد والثور	باب مضرة التبرع بالنصائح وكيف يتلطف المرء في إيرادها مع السلامة من التبعة فيها.
٥	باب الفحص عن أمر دمنة	باب انتفاع الملك بذي الرأي، وفيه بيان عن أمر العالِم الذي يعلم ولا يعمل بعلمه.
٦	باب الحمامة المطوقة	باب التلطف في عرض النصائح على الملوك من وجه يأمن المرء فيه من سوء التأوُّل عليه والخطأ الواقع فيه.
٧	باب البوم والغربان	باب انتفاع الملوك بالحيلة والمكايد، والتلطف في عرضها عليهم، وهو داعٍ للملوك أن لا يطرحوها، وبيان لوجهِ النفع بها.
٨	باب القرد والغيلم	باب مشاورة الصديق لصديقه وما في ذلك عليه من ضر ونفع، وفيه أيضا دليل على أن الحيلة والمكيدة غير محظورة، إذا أدت إلى صلاح الجملة.
٩	باب الناسك وابن عرس	باب ما يجب علي المرء في كل عمل يعمله.
١٠	باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند.	باب الانتفاع بعلم النجوم مع التوكل، وكيف يجب استعمالها من حيث لا تضر بالدين ولا تنقص من الحزم، وهو داع للعاقل أن لا يطرح الحزم مع التوكل ولا يدع التوكل مع الأخذ بالحزم، وأن هذا محتاج إلى هذا وهذا

[١] اعتمد البحث على نسخة عبد الوهاب عزام. لأني وجدتها أدق النسخ التي تناول تحقيق الكتاب، ومع تكرار القراءة في الأسد والغواص تبين لي أن هناك بعض أوجه الشبه في بعض المواضع بينه وبين باب (علي بن الشاه الفارسي) وهذا الباب ليس مذكورا في نسخة عبد الوهاب عزام؛ فرأيت أنه من الأنسب إألا أغفل ذلك اعتمادا على دقة النسخة المحققة التي اعتمدتها لأن صاحب الأسد والغواص ربما عاد إلى هذه النسخة التي أضيف لها هذا الباب، وقد أشرت إلى هذه النسخة الأخرى باسم محققها وهو محمد نايل المرصفي. على أن تكون النسخ الأخرى دون حاجة للنسبة لمحققها لأن هذه هي النسخة الأصلية المعتمد عليها في البحث.

[٢] - هذا الباب هو الذي ذكر فيه قصة الملك دبشليم والفيلسوف بيدبا.

		محتاج إلى هذا.
١١	باب مهرايز ملك الجرذان	باب تمام الحيلة
١٢	باب السنور والجرذ	باب كيف يكون تمام الرأي.
١٣	باب الملك والطير قُبرة	باب استعمال الملك كل واحد من أصحابه في المكان اللائق به.
١٤	باب الأسد وابن آوى	باب منفعة العلم والأخبار للملوك، وهذا الباب داع للملوك إلى التفتيش عن سير الفضلاء منهم.
١٥	باب السائح والصواغ	باب حيل أصحاب الملوك بعضهم على بعض.
١٦	باب ابن الملك وأصحابه	باب حاجة أصحاب الملك إلى بعض المدارة في إيراد النصيحة.
١٧	باب اللبؤة والشغبر	باب في الاستدلال بالعقول على المجازاة في المعاد.
١٨	باب الناسك والضيف	باب في مضرة سوء العادة بالنفس وانطباعه فيها.
١٩	باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين [١]	باب في أقسام السياسة ***[٢]

يمكن ملاحظة عدد من الأمور في عناوين فصول كلا الكتابين، أبرزها ما يأتي:

- أن عناوين أبواب كليلة ودمنة، جاءت تبعا للحكاية المفرعة عن دبشيلم الملك بيدبا الفيلسوف، وليس الحكاية الإطارية بالداخل (كليلة ودمنة)، وجاء أغلبها مرتبطا بالعنصر الحيواني. ومن خلال الحكايات المفرعة يبث الكاتب ما أراد من أفكار وتصورات ورؤى وقيم، دون أن تظهر الفكرة مباشرة في عناوين الأبواب. بينما جاءت عناوين الأبواب في "الأسد والغواص" مباشرة وواضحة وطويلة أحيانا بشكل واضح، وتشير إلى الفكرة المستهدفة بجلاء، ويبدو ذلك مخالفا للنهج الذي اتبعه "كليلة دمنة"، ولعل مردَّ ذلك إلى أنه بعد الحكاية الاطار (الخاصة بالملك الظالم دبشليم والفيلسوف الحكيم بيدبا)، ينطلق بيدبا بالفكرة موظفا العنصر الحيواني ومتكئا عليه في توصيل مراميه وتبليغ مقاصده، بينما كان منُطلق الغواص من خلال الحكاية الاطارية التي كان الغواص طرفا فاعلا فيها، فجاءت العناوين تحمل أفكار صاحب الكتاب أو فلسفته وتصوره، ولعله

[١] - هذا الباب ليس في نسخة عبد الوهاب عزام. وموجود في نسخة محمد نايل المرصفي .

[٢] - هناك ملاحظة تجدر الاشارة اليها وهي أن الفصول التي ذكرها مؤلف الكتاب في مقدمة الكتاب هي ١١ بابا (وجعلْتُه مرتبا على أحد عشر بابا مما أمليتُ جميعه على لسان الأسد والغَوَّاص للعُذْر الذي تقدم، وجَعلْتُهُ مختصرا مفيدا." وهنا يثور تساؤل من أين جاءت زيادات الأبواب عما ورد في المقدمة.؟ الاحتمالات النظرية هي: أن يكون كاتب الكتاب حدد ذلك في مقدمته ابتداء ولكنه خالف ما حدده داخل الكتاب سواء كان ذلك بسبب نسيانه ما شرطه أو لعله نسي تصويب ما كتبه في المقدمة أو لعل ناسخ الكتاب عبث بالأبواب فزاد فيها.

أراد أن تكون الأفكار مباشرة وواضحة لقارئها، فعمد إلى ذلك ولكنه اتكأ في المبني الحكائي الإطاري على لسان الحيوان من خلال (الأسد والغواص)، وربما يفسر هذا طول بعض عناوين الأبواب، وكأنه أراد أن تصل فكرته كاملة وواضحة بلا أي لبس لقارئه.

- أن عناوين أول ثلاثة فصول من كتاب "كليلة ودمنة" –ويضاف في بعض النسخ باب آخر يأتي سابقا على هذه الأبواب الثلاثة لعلي ابن الشاه الفارسي– لا تدخل ضمن نسيج النص السردي، وإنما جاءت ملحقة بالكتاب، ولا تدخل ضمن الإطار العام للحكاية أو ضمن الحكاية المفرعة، وبدا كل باب منها معبرا عن طبيعة علاقة الأطراف المتلقية للكتاب نفسه وصدى ذلك عليها. ويأتي الباب الأول من الكتاب تحت عنوان "عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع" وهذا العرض أضافه ابن المقفع إلى الكتاب، وقدم من خلاله رؤيته لقراءة الكتاب قراءة واعية متعددة، وكيف تَرد الحكمة أو النصائح داخل الكتاب بما يمكن لها من القبول الحسن المؤثر لدى متلقيها. ويأتي الباب الثاني خاصا بـ "باب توجيه كسرى أنوشروان بروزيه إلى بلاد الهند" لإحضار الكتاب خصيصا، والباب الثالث يتناول فصلا عن حياة برزويه الطبيب من كلام بزرجمهر بن البختكان. ثم يأتي السرد الحكائي الإطار والمُفَرَّع منه ابتداء من حكاية (الأسد والثور).

وبينما حظي كتاب كليلة ودمنة بهذه المداخل بحكم قيمته التي نالها، لكونه نُقل عن الهندية إلى الفارسية إلى العربية، أما "الأسد والغواص" فلم يحظ من ذلك بشيء، فمن ألفه هو من رواه، ولم تكن وراء الكتاب قصة تتعلق بتأليفه أو تداوله (ليس المقصود من ذلك إصدار حكم على الكتاب بكون قيمته أقل ولكن القصد وصف ما هو كائن).

وفيما يتعلق بالعناصر الإنسانية أو الحيوانية أو الجماد في عناوين الفصول في كلا الكتابين، فيُلاحظ في كليلة ودمنة ما يأتي:

- بروز العنصر الحيواني (سواء أكان وحده أم كان مختلطا مع الإنساني) متغلبا على العنصر الإنساني. فقد جاءت أسماء الحيوانات في عناوين الأبواب (١٦ مرة) الأسد والثور، الحمامة المطوقة، البوم والغربان، القرد والغيلم، ابن عرس، مهرايز ملك الجرذان، السنور والجرذ، الطير قبرة، الأسد وابن اوى، اللبؤة والشغبر. ويلاحظ أنه لم يتكرر لفظ منها سوى الأسد، ولكن الأسد الوارد في باب الأسد والثور خلاف الأسد الوارد في باب الأسد وابن آوي.

- بينما جاء ما يتعلق بالإنسان (٨) مرات الناسك في (باب الناسك وابن عرس) وثلاثة أشخاص هي إيلاد وإيراخت وشادرم في باب (إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند) والملك (في باب الملك والطير قبرة) والسائح والصواغ في باب (السائح والصواغ) وابن المللك وأصحابه في (باب الملك وأصحابه)
- الفصول ذات الطابع الحيواني الخالص (٨ أبواب) هي:(الأسد والثور، الحمامة المطوقة، البوم والغربان، القرد والغيلم، باب مهرايز ملك الجرذان، باب السنور والجرذ، باب الأسد وابن آوى، باب اللبؤة والشغبر.
- أما العنصر الإنساني الخالص فيأتي في (٤ أبواب)، هي (باب: إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند، باب السائح والصواغ، باب الملك وأصحابه، باب الناسك والضيف.
- أما العنصر الحيواني المختلط بالعنصر البشري فقد جاء في (بابين) هما (باب الناسك وابن عرس، باب الملك والطير قبرة)
- أتت الفكرة مباشرة عند تناول قضية التحقق مما جناه دمنة في باب (باب الفحص عن أمر دمنة).

أما اختفاء العنصر النباتي أو غيره من العناصر كالجماد أو السماء أو الفضاء أو غير ذلك فربما كان مرده أن كتاب كليلة ودمنة اتكأ على الحكايات في الأصل على العنصر الحيواني كما ذكر في مقدمته ومن ثم فالحيوانات الأكثر قدرة لديه على الحمولة الرمزية، كما أن الحيوانات تماثل المجتمع البشري، ومن ثم تكون الحيوانات العنصر الفاعل أما العنصر النباتي– إن وجد_ فهو عنصر منفعل. وربما يفسر ذلك أيضا اختفاء عنصري الزمان والمكان، فربما لم يرهما ابن المقفع سوى فضاءات تتحرك خلالها الأطراف الفاعلة.

أما في "الأسد والغواص" فلم يرد أي باب مسمى باسم حيوان أو إنسان، وإنما جاءت الأبواب للتعبير عن عدة أفكار بشكل تقريري مباشر واضح ومطول أحيانا، وكأنه لا يريد أن يترك مساحات أو فراغات فكرية تتفلت من القارئ أو لا ينتبه لها. ولا يوجد رابط منطقي واضح بين عناوين الفصول، فلا تبدو مرتبة وفق تصور واضح ومحدد، بحيث تأتي متدرجة مترابطة متماسكة ومتكاملة، وإنما الرابط فيما بين هذه الفصول هو الحكاية الإطارية التي تسمح بدمج هذه المتفرقات تحت مظلة الحكاية الإطار.

٣- مقدمة كليلة ودمنة والأسد والغواص

أ- **استهلال المقدمتين.**

حرص صاحبا كليلة ودمنة والأسد والغواص على بدء كلا الكتابين بمقدمة – وهي تأتي معزولة عن البناء الحكائي فيهما– وتبدو وظيفتها الأساسية أنها تقدم توجيها أو تصورا يمكن القارئ من خلاله فهم مرامي الكتاب ومقاصده البعيدة أو مراميه الخفية، ووسائل الكاتب التي يوظفها في كتابه لكي يصل إلى مبتغاه.

وهذا الاستهلال في كليلة ودمنة ينهض بعنصرين مهمين، يتصلان بقيمة الاستهلال ودوره، من عناصر الإبداع الأدبي: أحدهما يتعلق بالقارئ أو المتلقي نفسه، والآخر بجاذبية التشويق في العمل الأدبي نفسه؛ إذ إن " للاستهلال وظيفتان: الأولى جلب انتباه القارئ أو السامع وشده إلى الموضوع، فبضياع انتباهه تضيع الغاية... أما الوظيفة الثانية للاستهلال فهي التلميح بأيسر القول عما يحتويه النص" [١]

وقد بدأ ابن المقفع مقدمته التي وضعها بقوله: "هذا كتاب كليلة ودمنة، وهو مما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي التمسوا بها أبلغ ما يجدون من القول, في النحو الذي أرادوا. ولم يزل العقلاء من أهل كل زمان يلتمسون أن يُعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل ويطلبون إخراج ما عندهم من العلل. فدعاهم ذلك إلى أن وضعوا هذا الكتاب، ولخصوا فيه من بليغ القول ومتقنه على أفواه الطير والبهائم والسباع" [٢]

ويمكن استخلاص عدد من الأمور التي أدَّاها هذا الاستهلال:

- الإشارة إلى تسمية الكتاب؛ إذ إن أول عبارة تقع عليها عين القارئ، وحين يكون خاوي الذهن فهذا يُحدث له نوعا من التشويق، إذ لا يدري من أو ما يكون كليلة ودمنة. هل هما مكانان أم بلدان أم شخصان: رجلان، امرأتان؟ وما العلاقة التي تجمع بينهما؟ هل هما متحابان أم متعاديان؟ وغير ذلك من الاحتمالات المتعددة.
- الإشارة إلى الأمة التي يُنسب إليها هذا الكتاب، ولعل هذا له أيضا صلة قوية بفكرة درء نسبة الكتاب من صنع ابن المقفع نفسه وهذا له مخاطره عليه.

[١] - ياسين النصير، الاستهلال:فن البدايات في العمل الأدبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، سلسلة كتابات نقدمة، العدد(٧٥) يونيه ١٩٩٨م ص ٣١،٣٢.
[٢] - كليلة ودمنة ص٣

- أنه يحدد طبيعة المادة المستخدمة في هذا الكتاب فهي من الأمثال والأحاديث، وكذلك يشير إلى جودتها العالية؛ لأنها نتاج حسن الاصطفاء والانتقاء.
- أنه يذكر أن لهذا الكتاب وجهة محددة وليس مجرد حشد وجمع عشوائي لهذه الأمثال والأحاديث، من خلال عبارته "في النحو الذي أرادوا". أي أن هناك إطارا ما، يجمع هذا المجموع المصطفى.

ويبدو من خلال هذه الجملة الاستهلالية الطويلة أن ابن المقفع وضع إطارا عاما لكتاب كليلة ودمنة يحقق: التسمية، والنسبة، ومادة الكتاب، ومستواها الفني، والهدف. وبهذا يتحقق التشويق والفائدة والضبط المنهجي في آن معا.

وقد جاء استهلال مقدمة الأسد والغواص ذا طابع ديني إلى حد كبير، وبدا تقليديا؛ لأننا لا نراه يحمل أبعادا فكرية أو تأشيرا لما سيأتي: "الحمد لله الذي تعجزُ الألسُنُ عن وصفهِ كما تعجز العقول عن كنهه، وصلَّى الله على من دعانا إلى من يحيينا به، وعرفنا ما قصرت عقولنا عن معرفته؛ مُحمَّدٍ وعلى آله، وسلامُ على عباده الذين اصطفى".[١]

ويلحظ على هذا الاستهلال في المقدمة أنه جاء موجزا فيما يتعلق بالحمد والثناء على الله أو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. كما أنه يشير بشكل واضح إلى فكرة قصور العقل البشري. كما أنه لا يرتبط بموضوع الكتاب بشكل مباشر أو بالتلميح، حيث بدا المدخل مصبوغا بصبغة دينية تتعلق بحمد الذات الإلهية وليس – مثلا– بما منحنا الله من عقل مميز وحسن تدبير وتصريف يصلح حال العباد. كما نلاحظ أن الكتاب خلا من النصوص الدينية (الآيات، الأحاديث، آراء الفقهاء..). كما بدت مقسومة إلى شقين: قسم يتعلق بالذات الإلهية وعجز اللسن عن إيفاء الله حقه من الشكر والثناء، وصعوبة إدراك العقل البشري لحقيقة الذات الإلهية، ويأتي الشق الثاني متعلقا بالصلاة على من يقدم كل ما فيه الحياة والنفع والعلم والمعرفة وما عجزت عقولنا عنه وعلى آله".

ب– <u>فكرة التحايل لتحقيق الهدف</u>

يؤكد د. محمد رجب النجار بقوة فكرة أن الكتاب كُتبَ لغايات سياسية يقول :"في أربعة أبواب كاملة – هي من اختراع ابن المقفع نفسه– قدّم بها كتابه ليؤكد من خلالها أن الكتاب ذو غايات سياسية محضة لا تعليمية، كما في كتاب إيسوب، وإنما تحريضية، وأنه دعوة صريحة للمثقفين –من فلاسفة وحكماء وعلماء

[١] - الأسد والغواص ص ٤٧

ورجال دين– للقيام بواجبهم الأدبي والقيام بدورهم في مواجهة السلطة الحاكمة المستبدة، مهما كان الثمن فادحا والتضحيات باهظة. فالكتاب من ناحية هذا المنظور يحكي قصة الصراع بين السلطة والثقافة، ولما كان هذا الصراع بينهما – بين السيف واللسان– غير متكافئ بالضرورة، فإنه يلزم العلماء التحايل بصنوف الحيل كما يقول ابن المقفع، ومنها "وضع الكتب على أفواه البهائم والطير، ففي ذلك متسع لحرية القول، وهنا يكمن إعجاب ابن المقفع، إمام المترجمين في عصره– بكتاب كليلة ودمنة..." (١) . يقول ابن المقفع :"لم يزل العقلاء من أهل كل زمان يلتمسون أن يُعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل، ويطلبون إخراج ما لديهم من العلل. فدعاهم ذلك إلى أن وضعوا هذا الكتاب، ولخصوا فيه من بليغ القول ومتقنه على أفواه الطير والبهائم والسباع. فاجتمع لهم من ذلك أمران: أما هم فوجدوا متصرفا من القول، وشعابا يأخذون فيها. وأما هو فجمع لهوا وحكمة. فاجتباه الحكماء لحكمته، والسخفاء للهوه. وأما المتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه، وخف عليه حفظه، فإذا احتنك الحدث واجتمع له أمره، وثاب إليه عقله، وتدبر ما كان حفظ منه وما وعاه في نفسه وهو لا يدري ما هو، عرف أنه قد ظفر من ذلك بكنوز عظام" (٢)

ويأتي كتاب (الأسد والغواص) ملتفتا لهذه الفكرة أيضا، فكرة التحايل في إيراد ما يُراد إيراده من أفكار وآراء وقضايا دون الدخول في القول المباشر. "فاعلم أنَّ الحكماء جعلت الحكمة في ضمن الأخبار وعلى ألسنة الحيوانات وفي أثناء الحكايات لتخفَّ على القُلوب وتهشَّ إليها الأسماعُ، وزخرفوها بالصُوَر المؤنقة والأصباغ الزائفة استجماماً لنفوس الحكماء عند الملل، وترويحا لقلوب العلماء عند الضجر؛ لأن محمل الجد ثقيل وطريقه شاق بعيدُ ((٣)).

ويمكن ملاحظة عدد من الأمور المشتركة في الفقرتين السابقتين: أن من وضعَ هذه المادة التي ستُقدَّم للقراء من الفئة ذاتها، أي أنهم أصحاب العقول المميزة ممن يمتلكون المعرفة :(العقلاء– الحكماء)، وليسوا فئة أخرى.

(١) - محمد رجب النجار، حكايات الحيوان في التراث العربي "آفاق جديدة" ص ١٩٢.

(٢) - كليلة ودمنة ص٣،٤ عزام

(٣) - الأسد والغواص ص ٤٧، وهو يطرح تشبيهات تؤكد هذه الفكرة يقول :" وكان ذلك منهم كفعل الطبيب الرفيق الذي يدفنُ الدواء في بعض ما تتوق النفسُ إليه من الغذاء؛ وخدعةُ لنفوس الصبيان والأحداث ليميلُوا إلى استطراف الخرافات لأن نفوسهم متطلعةُ إلى نوادر الأخبار فتثبت معها الحكمةُ في صدورهم وتَلج في قلوبهم ويرسخ العلمُ في نفوسهمكالصياد الذي يطرحُ الحَبَّ خدعةُ للطائر لا للعَلَف بل لغرض آخر غير مبدوَّ منه ولا بأس بالخديعةِ إذا أدت إلى العلاج والمنفعة؛ ألا ترى أنّ الله عزَّ وجلَّ جعل ألم الجوع وشهوة الأكل داعيا إلى الغذاء كما كان سببا لبقاء الشخص، ولذة الجماع سببا لحفظ النسل وليس الغرض فيهما اللذَّة وإنما الغرض فيهما المنفعة" ص ٤٨ .

- أن هذه الفئة التي تميزت بالعقل الوافر لهم هدف يسعون إليه، ويحرصون عليه فهم "يلتمسون أن يُعقل عنهم" و"ويطلبون إخراج ما لديهم"، وفي الأسد والغواص "جعلت الحكمة في ضمن الأخبار"، فلكل منهما معرفة وحكمة واسعة يود طرحها على الآخرين، ويبدو انطلاقهم نحو هذا الأمر بدافع ذاتي بعيد عن تحقيق أية مكاسب شخصية.
- وجود هذا الدافع حدا بهما إلى استخدام وسيلة تحقق هذا الهدف فوظّف كل منهما حكايات الحيوان لتكون الوعاء الذي يتحقق من خلاله الهدف وهو "نقل الحكمة" و"أن يعقل عنهم". جاء في كليلة ودمنة : أن وضعوا هذا الكتاب، ولخصوا فيه من بليغ القول ومتقنه على أفواه الطير والبهائم والسباع." وجاء في الأسد والغواص. " جعلت الحكمة في ضمن الأخبار وعلى ألسنة الحيوانات وفي أثناء الحكايات لتخفَّ على القُلوب وتهشَّ إيها الأسماعُ".
- تم مراعاة مستويين من المتلقين: الأول: العلماء أو الحكماء فقد جاء في كليلة ودمنة ""فاجتباه الحكماء لحكمته"، وجاء في الأسد والغواص "استجماما لنفوس الحكماء عند الملل، وترويحا لقلوب العلماء عند الضجر".[(١)]، والآخر: فئة صغار السن أو الصبيان، وهذا يعني أن الكتاب لا يتحرك وفق مستوى عمري واحد يتسم بالنضج، بل يتحرك في إطار فعلي حاضر، وإطار حالي بسيط، ومستقبلي كامن؛ حيث يميل الصغار إلى الاستمتاع بالحكاية كونها على لسان الحيوان دون أن يلتفت أحد منهم آنذك إلى ما وراء النص، وحين يكبر – ويكون الكتاب قد ترسخ في وعيه في صغره– يتحول ما كان لديه من الحكايات إلى الوجه المستهدف من وراء الكتاب. يقول ابن المقفع : "المتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه"، وجاء في الأسد والغواص: وخدعةُ لنفوس الصبيان والأحداث ليميلُوا إلى استطراف الخرافات"

ج– طريقة الكتابين في إيراد الحكمة :

برز اهتمام الكتابين بعملية جمع الحكمة بشكل واضح لكي يتم تقديمها للقارئ، وهناك أمر يبدو لافتا وهو أنه يشار إلى أن الغرض هو جمع الحكمة ويبدو أنه هدف في ذاته، وهذا يثير بعض التساؤلات. منها مثلا ما طبيعة الحكمة أو القضية التي ستلقي أو تُعالج من خلال الكتاب؟ أو ما قيمة الإطار الحكائي

(١) - الأسد والغواص ص٤٩.

في الكتابين ما دام الأمر هو إيراد الحكمة؟ يبدو الإطار في هذه الحالة وكأنه مجرد وعاء وسياج توضع وتنتظم فيه الحكمة.

ومن اللافت للنظر ورود إشارة لابن المقفع في المقدمة وهي الإشارة الوحيدة التي ورد فيها ذكر ابن المقفع ولم يُشر إليه فيما بعد في داخل الكتاب نفسه وهي إشارة دالة على الالتفات إلى كتاب كليلة ودمنة، وإن لم يُشر إليه بالاسم ولكن اقتران كليلة ودمنة بابن المقفع يدفع لهذا الربط، وإن كان القول قد يكون ورد في غيره من كتابات ابن المقفع أو ترجماته. "وإني لأستحسِنُ كلاما لابن المقفع في وصفِ صديق له. حيث قال: كان لا يلومُ أحدا فيما يكون له العُذْرُ في مثلِهِ(١).

د. القارئ والغاية من الكتاب:

التفت ابن المقفع بشكل كبير إلى القارئ في عملية التلقي، فهو يلح على أهمية الوعي بما جاء في الكتاب وضرورة التأني والتروي بمقصده، وعدم قراءته بشكل متعجل دون الالتفات إلى مقاصده، ويبدو أن إلحاح ابن المقفع على هذه النقطة يعود إلى أن القارئ العربي لم يمتلك بعد الخبرة التي تجعله يفهم رسالة الكتاب على النحو المستهدف إذ "إن القارئ (ضمن الكتابة المؤسساتية) لديه "القدرة" التي اكتسبها من خلال الخبرة والدربة على التعامل مع النصوص الأدبية، أي يمتلك الفاعلية القرائية، دونما حاجة إلى معرفة المؤلف وقصده" [٢] ولذا نجد ابن المقفع يشير في أكثر من موضع إلى ضرورة الوعي بهدف الكتاب وغاياته.

- جودة القراءة والتروي فيها، وعدم التعجل في الانتهاء من الكتاب من أجل الحصول على متعة سريعة دون أن تتحقق الفائدة من قراءة الكتاب، يجب التروى فيه غاية التروي،" فأول ما ينبغي لمن طلب هذا الكتاب أن يبتدئ فيه بجودة قراءته والتثبت فيه، ولا تكون غايته منه بلوغ آخره قبل الإحكام له" [٣]

(١) _ هذا القول ورد في آخر الأدب الكبير لابن المقفع ص٧٧ . وقد ذكر د رضوان السيد أن هذا القول منتزع من كلمة جميلة في صفة الصديق تُنسَبُ في نهج البلاغة ٦٩/٤ وربيع الأبرار ٨٠٥/١ والتذكرة الحمدونية ٣٩٠/١ إلى علي بن أبي طالب، وفي عيون الأخبار ٣٥٥/٢ إلى الحسن بن علي، وفي الأدب الكبير (رسائل البلغاء) ١٠٥-١٠٦، والحكمة الخالدة ٣٢٦-٢٧، وزهر الآداب ٢٢٤/١، والعقد الفريد للملك السعيد ٢٥٣، إلى ابن المقفع.

(٢) د.ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، ص ١٧٤، والمصطلح الذي أورده المؤلفان (النص أو الكتابة) يبرز دور الخبرة السابقة في تلقي النص. من ص١٧٢ إلى ١٨٠

(٣) - كليلة ودمنة .ص٤

- ألا ينتقل من شيء إلى آخر دون أن يتقن الأول (يحكمه ويتثبت فيه) وكأن الكتاب عبارة عن مدونة أخلاقية وسلوكية يجب ألا يفوت شيء منها، أو كأن كل جزء مبنيٌّ على ما سبقه. ثم ينبه القارئ إلى ضرورة الفهم الدقيق لما يقرأ، ويضع كل شيء في موضعه ويبدو أنه يقصد بذلك المغزى والغرض من إيراد الحكايات أو الأخبار التي ظاهرها لهو وباطنها حكمة، أو لعلها تحتمل أكثر من دلالة ولكن سياق الحكاية يحدد ما هو مرجح ضمن هذا إطار الباب وما يُستبعد، وأن يعرف غرض الكتاب الحقيقي وما وراء ظاهر القول، وينبه الكتاب القارئ إلى أن المستهدف هو ما وراء الظاهر، أو هو المعاني القابعة خلفه، ويبدو كأن الكتاب يحمل رسائل مشفرة. "فليس ينبغي أن يجاوز شيئا إلى غيره حتى يُحكمه ويتثبت فيه وفي قراءته وإحكامه. فعليه بالفهم لما يقرأ والمعرفة حتى يضع كل شيء موضعه وينسبه إلى معناه. ولا يعرض في نفسه أنه إذا أحكم القراءة له وعرف ظاهر القول، فقد فرغ مما ينبغي له أن يعرف منه" [١]
- الالتفات إلى أهمية الوعي بالغاية من وراء هذا الكتاب، وأن القيمة الكبرى له هي في تحقيق هذه الغاية وإذا لم تتحقق فليس للكتاب كبير فائدة. " وينبغي لمن طلب أمرا أن تكون له غاية ينتهي إليها، فإنه من أَجْرى إلى غير غاية أوشك أن يكون فيه عناؤه وتقوم فيه دابته. وهو حقيق إلا يعنِّي نفسه بطلب ما لا يجد..." [٢] وهذا التركيز على تحقيق الغاية هو الذي دفع ابن المقفع إلى القول بضرورة الاقتداء بما في الكتاب، "فمن قرأ هذا الكتاب فليقتدِ بما في هذا الباب، فإني أرجو أن يزيده بصرا ومعرفة، فإنه إذا عرفه اكتفى واستغنى عن غيره، وإن لم يعرفه لم ينتفع به. [٣] . وهذا الغرض نفسه ربما كان السبب في غضب أبي جعفر المنصور عليه وقتله بشكل بشع على يد واليه سفيان بن معاوية بتهمة الزندقة. [٤] . ويلحظ هذا الإلحاح على القارئ لا نجده في مقدمة الأسد والغواص، وإنما نجد إشارة سريعة للقارئ.

---

[١] - كليلة ودمنة ص ٥

[٢] - كليلة ودمنة ص٩ .

[٣] - كليلة ودمنة ص ١٢

[٤] - يروى أن مقتله كان بسبب عهد الأمان الذي كتبه ابن المقفع للمنصور يؤمن فيه عبد الله بن علي، وتشدد فيه ابن المقفع على المنصور تشددا أحفظه، فأوحى إلى عامله سفيان بن معاوية واليه علي البصرة أن يقتله. ولكن التهمة الظاهرة هي الزندقة. كليلة ودمنة، تحقيق محمد نايل المرصفي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة ذاكرة الكتابة، مصر الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م، ص ٦٣

وهذه بعض الملاحظات العامة على المقدمتين:

- أن مقدمة ابن المقفع تتسم بالطول قياسا إلى مقدمة الأسد والغواص.
- أن المقدمتين تخلوان من أية شواهد دينية إسلامية أو غيرها، وتصبح هذه الملاحظة لافتة لكون كاتب الأسد والغواص مسلما، وأيضا لكون مقدمة كليلة ودمنة كتبها ابن المقفع وهو تحت ظلال الحضارة الإسلامية.
- أن مقدمة كليلة ودمنة تم توظيف بعض القصص القصيرة داخل بنية المقدمة، وهو ليس تنويها بما سيرد في داخل الكتاب ولا إشارة لها ولكنه قصص جاء ضمن سياق المقدمة وينحصر دوره غالبا في تأكيد الفكرة التي يذكرها ولكن لا يحمل الفكرة ابتداء، وجاء ذلك في خمسة مواضع يذكر فيها ابن المقفع خمس قصص وهي لا ترد ضمن نسيج سردي أو إطار تتولد من خلاله ولكنها تأتي داعمة للأفكار التي يطرحها ابن المقفع. من اللافت للنظر أن هذه القصص الخمس ترد تحت عبارة "... الرجل الذي بلغني" [١]
- وربما يقوم مقام هذا القصص المؤكد للفكرة في كليلة ودمنة، التشبيهات المتوالية في الأسد والغواص التي تعضد الفكرة وتقويها. (وكان ذلك منهم كفعل الطبيب الرفيق الذي يدفن الحب في بعض ما تتوق النفس إليه من الغذاء، وخدعة لنفوس الصبيان والأحداث ليميلوا إلى استطراف الخرافات؛ لأن نفوسهم متطلعة إلى نوادر الأخبار فتثبت معها الحكمة في صدورهم وتلج في قلوبهم ويرسخ العلم في نفوسهم، كالصياد الذي يطرح الحب خدعة للطائر لا للعلف بل لغرض آخر غير مبدوٍّ منه..." [٢]

[١] - أتت هذه العبارات كالآتي: "كما أصاب الرجل الذي بلغني أنه رأى في بعض الصحاري كنزا" ص ٤- "و لا يكن كالرجل الذي بلغني أنه طلب علم الفصاحة ..."ص٥،- "وكان كمثل الرجل الذي بلغني أن سارقا دخل عليه في منزله ص٦" – "ومن فعل ذلك كان خليقا أن يصيبه ما أصاب الرجل الذي بلغني أنه كان يبيع السمسم"ص ٨، "وربما أصاب الرجل الشيء وهو غير راجٍ له، كما أصاب الرجل الذي بلغني أنه كانت به حاجة شديدة ..."٩

[٢] - الأسد والغواص ص٤٧،٤٨. ثم يشير إلى كلام لجالينوس حول بعض الناس الذين ماتوا لما أصابتهم علل أبطلت لديهم شهوة الغذاء فماتوا جوعا، كما يشير إلى عدم لوم أحد ما لم لعل له عذرا ويؤكد هذه الفكرة بكلام لابن المقفع في وصف صديق.

٤-البنية الكبرى للحكاية

لكل نص أدبي بنيته الخاصة التي تحقق تماسكه ضمن إطاره الكلي، "فالبنية السردية لنص أدبي أو نظري، تشكل كونا منسجما ومستقلا ذاتيا؛ لأنها تحاكي الواقع، وتعيد إنتاجه وتتماشى معه بصورة ظاهرة أو ضمنية" [١]. ولا يعني ذلك بالضروة أن الحكاية تنسخ الواقع نسخا، وإنما هي تشكل عالمها الخاص بها من خلال الانتقاء والاصطفاء والتعويل على الجانب الفني في عملية تشكيل هذه العناصر وتمازجها ضمن إطار هذه البنية. " فالقصة – كما يراها بروب- عبارة عن بنية حكائية معقدة، تسهم في تشكيلها وبنائها مجموعة من العلاقات المتشابكة يتم استنباطها والكشف عنها من خلال تفكيك الحكاية، والكشف عن العلاقات والوظائف التي تنفذها في سياق قصصي معين" [٢]

وبقدر توفر الجمالي في هذه البنية يتحقق نجاحها، ذلك أن"البنية هي النسيج الجمالي الذي تنتظم فيه مفاصل النص في مستوياتها السردية والذهنية، بعلاقات تشابكية ومنسجمة ومؤولة، تركيبا ودلاليا وتداوليا" [٣] .والبنية الكبرى في النص تتسم بالكلية والشمول وبأبعاد إطارية، فهي التي تؤطر البنيات الصغرى وتمنحها شرعية الوجود والتآزر مع غيرها داخل النسيج الكلي للحكاية الكبرى؛ ذلك أنها تؤدى مهمة أو وظيفة في موضعها ضمن النسيج الكلي الذي يشبه تتابع العقد كل حبة تسلم لأخرى حتي تكتمل في النهاية صورته.

أ- <u>البنية الإطارية :</u>

تتشكل حكاية كليلة ودمنة في بنيتها الحكائية من مستويين: الأول، يتصل بالقصة الإطار، وهو يتصل بالنمط الإنساني (الملك دبشيليم وبيدبا الفيلسوف). المستوى الثاني: الحكايات المُضمنَّة داخل هذا الإطار، وهي المتصلة بالنمط الحكائي الحيواني المتمثل في(كليلة ودمنة) كما في عنوان الحكاية أو كما

---

[١] - د.قصي الحسين، تفكيك النص وتفكيك المصطلح النقدي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، العدد١١٢، ١١٣، إبريل ٢٠٠٠م ض ٩٤.

[٢] - أميرة الكولي، البنى الحكائية في الأدب العربي، دراسة في ضوء المنهج البنيوي، دار التنوير، الجزائ، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص ١٥. " ولقد اعتمد في منهجه هذا على نموذج حكائي روسي مووث هو الحكايات الخرافية، فجمع ما يناهز مائة حكاية مستقيا منها ما دعاه ب (المثال الوظائفي) الذي يعني به "عمل الفاعل معرفا حيث معناه في سير الأحداث السابقة التي تسوغه، ومن الأحداث اللاحقة التي تنتج عنه".

[٣] - صبجي الطعان، بنية النص الكبرى، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد -٢،١ يوليو ١٩٩٤م ص ٤٣٦

ورد في الباب الأول) الأسد والثور (والنمط الحيواني يأتي متفرعا من الحكاية الأولى (الإطار الإنساني) [١] وتأتي الحكاية المفرعة ضمن نسيج الحكاية الإطار للإجابة عن سؤال الملك المحدد (اضرب لي مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتي يحيلهما إلى العداوة والبغضاء) ولعل هذا السؤال والإجابة عنه بمثابة تحديد مسار للحكي ضمن نطاق محدد، فالإجابة ستكون مرتبطة بالسؤال المطروح من قِبَل الملك .

وأما حكاية الأسد والغواص، فهي الحكاية الإطار، وليست ضمن حكاية أخرى، حيث توجد حكاية كبرى تشكل إطارا ويتوالد ضمن هذه الحكاية الإطارية مجموعة من الحكايات والقصص والأخبار الأخرى التي تتناغم بالحكاية الإطار وتتسق ضمن إطارها العام. وقصة الأسد والغواص تنتمي لهذا النوع التفريعي أو البصلي الذي تتصل فيه القصة الإطارية أو القشرة البصلية الخارجية بقصص داخلية أخرى. وهذه البنية الكبرى يمكن للقارئ المطلع أن يلتفت إليها ويعيها.

وكون الأسد والغواص الحكايةَ الإطارية وليست مفرعة عن حكاية أخرى، يثير سؤالا له وجاهته حين نقوم بتتبع التقارب والتعالق بين الحكايتين. هل يكون بين المستوي الثاني من الحكي (النمط الحيواني) في كليلة ودمنة أم ضمن الحكاية الإطارية في مقابل الحكاية الإطارية في الأسد والغواص)؟

ويتبادر إلى الذهن وجود تصورين للتعامل مع نص الأسد والغواص ومقاربته مع نص كليلة ودمنة، الأول: هو التعامل مع الإطار في الحكايتين؛ ذلك أن هذا الإطار هو الذي يشكل السياج العام في كليهما، ومن ثم يصبح منطقيا أن نتناول إطارا مقابل إطار ومبني حكائيا كاملا مقابل مبني حكائي كامل، وذلك إذا وضعنا في الاعتبار فكرة البنية أو الإطار. الثاني: المقاربة بين نص حكائي متفرع (النمط الحيواني أي كليلة ودمنة) ونص إطاري فسيكون على افتراض أن النص الحكائي الإطاري في الأسد والغواص هو ابن شرعي للحكاية المفرعة وليس الحكاية الإطارية. (وتكون المقارنة هنا بين نمط حيواني في كليلة ودمنة ونمط حيواني في الأسد والغواص).

والحكاية في الأسد والغواص تشبه إلى حد كبير كليلة دمنة في عدة جوانب، وقد التفت محقق الكتاب د. رضوان السيد إلى هذا الأمر بقوله "الإطار العامُ لحكاية" كليلة ودمنة يقول أشياء مختلفةٌ تماما عمّا قيل

[١] - توجد إشكالية بسيطة في هذه الجزئية حيث توجد طبعات لا يرد فيها الفصل الخاص بالحديث عن دبشليم الملك والفيلسوف بيدبا ومن ثم يعد منطقيا أن نعتمد على ما هو مؤكد، وهو الجزء الحيواني الخاص بكليلة ودمنة، ولا مانع من أخذ الجزء الخاص بدبشليم وبيدبا الفيلسوف في الحسبان لأنه ربما تكون هذه النسخة هي التي اطلع عليها صاحب الأسد والغواص.

في" كليلة ودمنة. "ومن ضمن الإطار العامُ المشترك أنّ الملك هو الأسدُ ملكُ الوحوش في كلا الحكايتين الرمزيتين، والغَوَّاص ثعلب كما أنّ دمنة ثعلب. وصديق الغَوَّاص الذي ينصحُ بعدم التعاون مع السلطة هو في حكاية ابن المقفُع" كليلة لا يلعب" اللوّام "دورا مهما في"الأسد والغَوَّاص". "إنه مجرد محاكاةٍ لجانبٍ من جوانب شخصية" دمنة "في"كليلة ودمنة" ويبدأ الافتراقُ منذ الصفحات الأُولى في صورة السلطة والسلطان من جهة، وفي أغراض كلٍّ من الغَوَّاص ودمنة من وراء التقرب من السلطان" ((١)) ويمكن إدراك هذا التقارب أو التشابه في الإطار فيما يلى.

- أن الأطراف الفاعلة تقوم على ثلاثة حيوانات رئيسة هي: الأسد، وابن آوى/الغواص، الثور/الجاموس. ويشترك طرفان منها في أنهما من آكلي اللحوم، بينما الطرف الثالث من آكلات العشب، وهو حسب قانون الغابة "طعام للطرف الأول" وهذا ما تم في حكاية الأسد والغواص، ولكن ذلك لم يكن بفضل قوة الطرف اللحمي وفق منطق الغابة، ولكنه يحدث بسبب مكر الطرف الثاني وحيلته (ابن آوى)، الذي استطاع أن يقضي على هذا الطرف (آكل العشب) باستخدم مكره ودهائه وسعة حيلته فيفضي به إلى الموت.
- ولكن يلح سؤال على الذهن، لماذا لم يقم صاحب حكاية الأسد والغواص بتكرار تجربة "الأسد مع الثور" في كليلة ودمنة؟ حيث قام الطرف الثاني (ابن آوى) بحيلته وتدبيره بتطويع الطرف الثالث الغريب وتدجينه لصالح الطرف الأول اللحمي الأقوى ثم تخلص منه لاحقا حين استشعر أن ذلك على حساب منزلته؟ ويمكن طرح عدة تصورات حول هذا الأمر أبرزها:
- هل يأتي ذلك لخوف الغواص أن يكون الثور بديلا له كما حدث في كليلة ودمنة، فيصبح الجاموس مقربا من الأسد على حساب الغواص؟، ومن ثم فلا داعي لتكرار خطأ التجربة السابقة، على الرغم من

(١) كليلة ودمنة، ص٤٦. وقد ذكر د.رضوان السيد في مقدمة تحقيقه لكتاب الأسد والغواص ما يشير إلى وجود تعالق نصي بين حكايتي الأسد والغواص وكليلة ودمنة في الإطار العام . يقول د رضوان السيد" يستخدم واضع حكاية" الأسد والغَوَّاص "الإطار العامُ لحكاية" كليلة ودمنة "ليقول أشياء مختلفةٌ تماما عمّا قيل في" كليلة ودمنة . "ومن ضمن الإطار العامُ المشترك أنّ الملك هو الأسدُ ملكُ الوحوش في كلا الحكايتين الرمزيتين . والغَوَّاص ثعلب كما أنّ دمنة ثعلب .وصديق الغَوَّاص الذي ينصحُ بعدم التعاون مع السلطة هو في حكاية ابن المقفُع" كليلة ودمنة "لا يلعبٌ" اللوّام "دورا مهما في" الأسد والغَوَّاص. "إنه مجرد محاكاةٍ لجانبٍ من جوانب شخصية" دمنة "في" كليلة ودمنة "ويبدأ الافتراقُ منذ الصفحات الأُولى في صورة السلطة والسلطان من جهة وفي أغراض كلٍّ من الغَوَّاص ودمنة من وراء التقرب من السلطان" من مقدمة المحقق ص٤٦

أن الغواص كما تجلى ذلك – في مواضع متعددة سواء أكان ذلك من خلال الفعل أم على لسانه أم لسان غيره– لم يكن حريصا على البقاء والاستمرار مع السلطان.

- أم هل يأتي ذلك لقناعة الغواص بأن هذا الطرف الوافد على الغابة غريب عنها وليس من أهلها، ولا يمكنه البقاء بين جنباتها والاستمتاع بخيراتها؛ ومن ثم فلا داعي لمحاولة استبقائه أو ضمه لحيوانات الغابة وتأطيره ضمن قواعدها ونظمها.
- أم أن الغواص يعلم أن هذا هو المصير المحتوم الذي سيؤول إليه الثور في نهاية المطاف، ومن ثم فلا داعي للوقوف ضده أو محاولة تغييره، سواء أكان ذلك بفعل حاشية السلطان الذين لن يسمحوا له بأن يبقي قريبا منه على حسابهم أو أن ينافسهم على مكانتهم، فضلا عن أن يأخذ مكانة مميزة لديه وهم له متربصون. وهذا ما وضح من كلام صديق الغواص الذي استنصحه فكان من جملة نصائحه له ألا ينافس حاشية السلطان على مكانتهم.
- أم أنه جعل الثور بمثابة العنصر الدخيل على الغابة، أو بمعنى أدق العدو الخارجي؟ وجاء التخلص منه باستخدام العقل والحيلة تحت رعاية السلطان وأمره وغياب الحاشية أو صمتها على الأقل أو تحييدها.

ب– علاقة المثقف بالسلطة [١]

١. ويمكن النظر في الكتابين إلى علاقة المثقف بالسلطان من جهة أو علاقته بالبطانة وما يتصل بها من السلطة كالوزارة ونحوها؛ لنصل بعدها إلى مآل التحالف بين السلطة من جهة والحكيم أو المثقف من جهة أخرى، في كليلة ودمنة في النمط الإنساني (الملك وبيدبا) والنمط الحيواني (كليلة ودمنة)، د. وضحا محمد عواد المحارب، جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني بين الاستبداد والاغتراب، مجلة جامعة الناصر، العدد الخامس، المجلد الأول، يناير، يونيو٢٠١٥م.[٢] أو بين الأسد والغواص.

(١) - اهتم عدد من الدراسات ببحث علاقة المثقف بالسلطة أو الشخصيات كتابي كليلة ودمنة والأسد والغواص أبرزها: دراسة د. عبد العزيز شبيل: التناص والتراث العربي: بين كليلة ودمنة والأسد والغواص، حوليات الجامعة التونسية، العدد٥٢، يناير٢٠٠٧م. ودراسة د. خولة شخاترة بعنوان: كليلة ودمنة والأسد والغواص: ملامح من علاقة المثقف بالسلطة (مجلة البلقاء للدراسات والبحوث، المجلد١٢، العدد١، رجب ١٤٣٨هـ، أغسطس ٢٠٠٧م، ودراسة د. وضحا محمد عواد المحارب، جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني بين الاستبداد والاغتراب، مجلة جامعة الناصر، العدد الخامس، المجلد الأول، يناير، يونيو٢٠١٥م.

(٢) - وتحت عنوان (مراتب النداماء والمغنين لدي الفرس وفي الإسلام " يقول عن أردشير وترتيبه لرعيته إلى طبقات: "وكذلك جعل الناس علي أقسام أربعة، وحصر كل طبقة علي قسمتها: فالأولى، الأساورة من أبناء الملوك، والقسم الثاني، النساك وسدنة بيوت

تبدو فكرة القوة أو السطوة لدى السلطان جزءا ملازما لطبيعته حتى تتحقق له الهيمنة والسيطرة والهيبة، خاصة لدى العرب، يقول ابن خلدون في "الفصل الثامن والعشرون في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك": ذلك أن "سياسة الملك أو السلطان تقتضي أن يكون السائس وازعا بالقهر، وإلا فلن تستقيم له سياسة" (١)

تأتي صفات الأسد في كليلة ودمنة سلبية أكثر منها إيجابية، ويتبدى هذا في أكثر من موضع من الحكاية، سواء أكان ذلك على مستوى الفعل أم المسلك أم الرأي. "وكان بقربه (أي قرب الثور) أسَد يُقال له بِنكلة، وكان ملك تلك الناحية ... وكان مزهُوًّا متكبّرًا منفردًا مكتفيًا برأيه، وإنَّ ذلك الأسد لمَّا سمع خُوار الثور، ولم يكن رأى ثورًا قط، ولا سمع خُواره، رُعِب منه، وكَرِه أن يفطن لذلك جُندُه، فلم يبرح من مكانه". (٢)

وضعف قدرات الأسد الفكرية كان دمنة يعلمه تمام العلم، فهو يقول لكليلة " أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة، فإنه ضعيفُ الرأي، وقد التبس عليه وعلى جُنده أمرُهم، فلعلِّي أدنو منه وأصيب حاجتي عنده." وقد استطاع بمكره ودهائه أن يحول العلاقة بين الأسد والثور من ودٍّ ومحبة إلى جفاء واقتتال أفضى إلى مقتل الثور وجرح الأسد جراحات بالغة.

ويبدو سوء تفكيره وضعف رأيه حين رابه صوت الثور فقد عزم الرحيل عن الوطن "غير أنَّه خليقٌ أن تكون الجُثَّة على قدر الصوت، فإن يكن ذلك كذلك فليس مكاننا هذا لنا بمكان" (٣)

أما فيما يخص الطرف الأول (السلطان) في "الأسد الغواص" فإنه يبدو حاكما صالحا، ونجد الغواص يكيل له المديح كيلا. "ذكروا أن أسَدا كان مَلِكا للوحُوشِ في بعض المَوَاضِعِ وكان حَسَنَ الطَّرِيقَةِ في مملكته محمودا في رعيَّتِهِ قد سَاسَهُم بأمْرَينِ جُمِعَ الحَزْمُ فيهِمَا : شِدَّةٌ في غير عنفٍ، ولينٌ من غير ضعفٍ... قد اختار لنفسهِ التَّعَبَ في راحتِهِم ؛ تَسْهَرُ عَيْنُهُ لِتَنَامَ أعْيُنُهُم، ويتعَبُ جِسْمُهُ في رَاحَةِ أجسامهم. فكان قَد رَكِبَ من ذلك طريقةً صَعْبَةً المسالِكِ شاقَّةَ المذاهِب، فكان الذي يُسَهِّلُهَا عليهِ شِدَّةُ محبتِهِ للرِيَاسة

النيران، والقسم الثالث، الأطباء والكتاب والمنجمون، والقسم الرابع، الزراع والمهان وأضرابهم. وكان أردشير يقول: ما شيء أسرع في انتقال الدول وخراب المملكة من من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها، حتى يرفع الوضيع إلى مرتبة الشريف ويحط الشريف إلى مرتبة الوضيع" . أخلاق الملوك، الجاحظ، تحقيق وتقديم نسيم الهواري، دار المعارف، ٢٠١٩م ص٣٢ .

(١) - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب، والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، اعتني به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، د.ت عمان. ص٧٩

(٢) - كليلة ودمنة ص٤٥،٤٦ عزام

(٣) - كليلة ودمنة ص٥٤ عزام.

وشَغَفُهُ بإحْيَاءِ السنَّة وبتَنْفيذِ أحكَامِ الشَرِيعَةِ [١]. وهذا يعني أن الإشكالية هنا ليست مع الملك كما هو الحال في الحكاية الإطارية (دبشليم، بيدبا) حيث كان الملك صاحب ظلم وطغيان وجبروت.

ورأس السلطة (السلطان أو الملك) ليس إلا لفئة مخصوصة من الناس، "فهي جبلة وسعادة" ولم يطمح الغواص أبدا لا تصريحا ولا تلميحا أن يكون على رأس هرم السلطة، ولا أن يكون وزيرا للملك، بل إنه كان رافضا من الأصل أن يكون جزءا من منظومة السلطة رغم أن العرض جاء من الملك نفسه، بل وألحّ عليه في قبول الأمر، لكنه رفض واعتذر:"إن نفسي ليست محبة للرياسة ولامشغوفة بمعاناة الولاية" [٢] . ولكنه قَبِل أن داعما معرفيا وثقافيا أو مستشاراً فكريا ومستخلصا لتجارب السابقين وأخبارهم (اجعلني أعرض عليك عقول الناس وعلومهم وأخبارهم، وأفتش لك عن زبد العلم والحكمة..." [٣] وهو يشير في أكثر من موضع إلى زهده التام في السلطة أيا كان موقعها وعدم رغبته أن يكون جزءا منها بشكل مباشر. وعلى الرغم من ذلك فإن البطانة لم تأمن أبدا على مواضعها التي تتوجس خيفة دائما من أن يحاول أحد زحزحتها عنها، ومن ثم لم تأمن الغواص على أنفسها، كونه صار محل ثقة الملك، وهذا ربما يجعل له فيهم رأيا على أعمالهم في لحظة ما، ومن هنا بادرت البطانة بالتحرك تجاه الغواص في ضربة استباقية، دون انتظار ما قد يجلبه لهم من متاعب، وحددوا بخبرتهم الطويلة في صحبة الملك المواطن التي لا يمكنه أن يتجاوز أو يتسامح مع فاعليها؛ فهي بالنسبة له من الموبقات المهلكات لأصحابها، وهي كما حددوها وبنوا مخططهم ضد الغواص من خلالها: "إن الملوك قد تعاقب وتسخط في أربعة أشياء: إفشاء السر، والقدح في الدولة، وإفساد الحرم، واختزال الأموال" [٤]

---

[١] - الأسد والغواص ٤٨ ومن الصفات الأخرى التي كالها للأسد: قَد جَعَل عطاءَهُ للغَنَاءِ لا للهوى وعِقَابَهُ لِلأدَبِ لا لِلْغَضَبِ ؛ يجلس بَيْنَهُم مُتَوَاضِعا فِيهِمْ كأنَّهُ واحِدٌ مِنْهُمْ وهم مع ذلك لا يكادون يرفعُون أبْصَارَهُم إليهِ هيبةً لَهُ، وقد حَمَلَه على التواضُع حُبُّ الرّفعةِ ؛ يَعْمَلُ للرِئاسَة كأنَّه عاشَقٌ لَهَا ويَذِلُّ مَعَها كأنَّهُ زَاهِدٌ فيها ؛ يُحبُّهُم مَحَبَّةَ الوالِدِ ويُعَاقِبِهُمْ كأنَّهُ لا رَحْمَةَ عِنْدَهُ كما يَضْرِبُ الوالدُ وَلَدَهُ إذا رَأى في ذلك مَصْلَحَتَهُ إشفاقا لهُم من شِدَّةِ إشْفَاقِه عليهم. يسيرُ فِيهِم بِبَعْضِ ما يَكْرَهُوْنَ حِرْصا مِنْهُ على ما يُحِبُّونَ. وقد جَعَلَ ذلكَ كالدَّوَاءِ في مُدَّةِ استِعمَالِ الغِذَاءِ الذي لا تُحْفَظُ الصِحَّةُ إلّا بِهِ، وكالمِلْح في الطَّعام الذي لا يَطِيبُ إلّا مَعَهُ. قد أظْهَرَ لهُم خُشونةً تمنعُهُم من الجراءة عليه، وأبطنَ لهم رَأفَةً ورحمةً تَمْنعُهُ عن ظُلْمِهم.

[٢] - الأسد والغواص ص ١٠٩

[٣] - الأسد والغواص ص١١٤

[٤] - الأسد والغواص١١٩ وقد ورد في باب أسرار الملك في كتاب أخلاق الملوك للجاحظ: " ومن حق الملك أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة، والصديق، فإن الملك يتحمل كل منقوص ومأنوف ولا يتحمل ثلاثة: صفة أحدهم يطعن في ملكه، وصفة الاخر أن يذيع أسراره، وصفة الآخر أن يخونه في حرمه " أخلاق الملوك، الجاحظ، تحقيق وتقديم نسيم الهواري، دار المعارف، ٢٠١٩م ص ٧٥.

وقد فطنت البطانة إلى أن مكانة الغواص الطيبة لدى الملك وزهده البادي الصادق في ألا يكون طرفا ضمن منظومة السلطة لا يعني أنه بمنأى عن تحول السلطان عنه، أو تغير خاطره عليه، أو بمعزل عن الانقلاب عليه، كما فطن صديق الغواص لهذا الأمر حين قال على لسان صديقه الحكيم "إن الملك كالبحر وأصحابه كالرياح تصرفه كيف تصرفت فإن هاجت هاج، وإن سكنت سكن" [١]

والتحول في موقف الملك من تقريب الغواص الشديد والثقة بعقله ومشورته وعلمه وورعه إلى التوجس منه والريبة فيه ثم حبسه، يؤكد خوف السلطة ووجلها من مجرد التفكير في أن يسعى أي فرد لأن يدخل ضمن هذه المنظومة على غير رضاها فضلا عن أن تطمح نفسه أن يكون على رأسها. وانفكاك التحالف بين الأسد والغواص أو السلطة والمثقف يأتي بسبب التباين الشديد في حوافز كلا الطرفين نحو التحالف مع الآخر.

فالغواص سعى للتعاون مع الملك لأنه رأى في ذلك مصلحة للجميع؛ ففيها حفاظ على سلامة الأرض وإحياء السنة، خاصة أنه رأى انكماش الملك عن الظهور وتشريدَ الجاموسِ الوحشَ ونشره الخوف بما يهدد أمن المجتمع وتماسكه ووحدة الأرض كذلك، بينما سعى الملك نحو الغواص لما تحقق له من منفعة مؤكدة على يديه تتعلق بحفظ هيبته وترسيخ ملكه وبسط سلطانه بالقضاء على الخطر الوافد على الأرض والجماعة.

وحين بادر الغواص ببذل نصيحته للملك فقد عرضها في إطار ما يمتلكه ويُحسنه وهو الفكر والرأي، وقدمها للملك وهو ليس جزءا من السلطة وليس راغبا فيها ولكنه حين أقدم على بذل الرأي والمشورة كان في ضوء ما رآه واجبا عليه تجاه جماعته التي ينتمي إليها، وكانت القناة التي رأى أن يقدم من خلالها هذه النصيحة هي الملك، باعتباره رأس السلطة، الممسك بزمام الأمور، وأن صلاح المَلك إنما هو صلاح للرعية، (يجب على الرعية أن يجهدوا أنفسهم بما يجدون إليه السبيل من رأي وقدرة، كما يجب على الملك أن يبذل لرعيته ما يصلح حالهم من تدبير وقوت؛ فإن صلاح مملكته صلاح الجملة التي الناصح جزء منها يضره ما يضرها، وينفعه ما ينفعها) بما يحقق في نهاية الأمر وحدة الأرض وتماسك المجتمع .

وهذا يعني أن للملك دورا أو أدوارا تجاه رعيته وأن للرعية واجبا كذلك تجاه ملكها، وفي النهاية تتحقق الغاية المأمولة من هذا وهي أداء طرفي العلاقة واجبهما إزاء الأرض وأهلها والشريعة، وهذا يعني أن

[١] - الأسد والغواص ص ١٥٧

الغواص يرى المسئولية متبادلة بين طرفي العلاقة (الحكام والمحكوم) بما فيهم الغواص، بوصفه أحد أفراد الرعية وبوصفه مثقفا صاحب رؤية أراد أن يوصلها للملك، فهو ليس جزءا من السلطة وليس سياسيا، ومن ثم فقد تقدم لإبداء النصح للملك، فإن أُخذ به وصب في صالح العباد فهذا مراده وإلا كان الابتعاد والافتراق عن السلطة.

فالسياسي يمتلك السلطة والقوة والقدرة على إنفاذ ما يريد، بينما المثقف لا يملك سوى عقله وحكمته وقدرته على النفاذ إلى بواطن الأمور، وحين يحرص على أن يلقيها إلى السلطة فذلك لأنه يرى هذا واجبا عليه، ومن ثم فإذا كانت السلطة تخشى المثقف أحيانا، خوفا على ما لديها، فإنه لا يخشى على ما لديه من علم بل يحرص أن يلقيه في حجر السلطة لحل الأزمات ليكون النفع عاما وتحركه في ذلك وتدفعه مسئوليته الأخلاقية تجاه مجتمعه، (إني أخشى أن يكون علمي حجة عليّ؛ فإن السعيد من استعمل نعمة الله فيما يقربه إليه، فتكون الفضيلة التي أُوتيها سببا لفضيلة أكبر منها، ويجعل شكره عليه أن يستعملها في طاعة واهبها. جعلنا الله إياك ممن انتفع بعلمه، ولم يكن علمه حجة في التقصير عليه، فإن الجاهل أعذر من العالم المقصر". [١]

بينما يسعى المثقف نحو تقديم علمه للسلطة منتقلا من خانة طلب العلم للعلم إلى خانة العمل بما تعلّم، فإن السياسي يسعى دوما إلى ما يقوي سلطانه بكل السبل (ماديا وبشريا)، ومن ثم فقد تسعى السلطة إلى جعل العَالِم جزءا من مشروعها السياسي أو تابعا لها وخادما لرغباتها، وحينئذ لن يكون المثقف حر الإرادة تماما، فإما أن ينضوي تحت سطوة السلطة وطغيانها وبريقها وزخرفها، أو أن ينفصل عن السلطة إن استطاع، وهذا ما كان، حيث انفصل الغواص عن السلطة، ولم يكن ذلك بسبب السلطان نفسه وإنما بسبب الحاشية التي أرادت أن تكون دائرتها مغلقة ولا تسمح لأحد بأن يخترقها، خاصة أن الوافد الجديد عصي على التطويع، ومن ثم لم تقبله ضمن نسيجها.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده لِمَ لمْ تحاول الحاشية إغراءه وتدجينه لصالحها أو تطويعه ليكون واحدا منها، خاصة أنه صار ذا كلمة مسموعة لدى الأسد؟

ويلاحظ أنه لم يظهر في السرد لا تصريحا ولا ضمنا أية محاولات لتطويع الغواص وتدجينه من قبل الحاشية، ويبدو أنها لم تحاول ذلك ليقينها بأنه عصيٌّ على ذلك، فهو يرفض عرض الملك نفسه له بالبقاء

[١] الأسد والغواص ص ٥٧

معه في السلطة، وهو السلطان بما يمتلك من النفع والضر لمن حوله، وكل من حوله يرجوه ويتزلف إليه، فكيف يقبل منهم هم وهم له تبع؟ خاصة أن الغواص لم يرض بصيغة المشاركة في الحكم التي عرضها الملك بل عرض صيغة أخرى تلائمه وتوائم بين نفع الملك ورغبته في البقاء قريبا من طلب العلم والمعرفة والابتعاد عن الانخراط في السلطة.

ج- مشروع المثقف في كلا الكتابين:

يوجد تقارب شديد في المشروع الذي تطرحه كلتا الحكايتين، وهذا ما يمكن أن نلمسه إذا نظرنا إلى مشروعيهما في ضوء الكتابات التي تنتمي لهذا النوع من الكتابة(مرايا الأمراء)، يقول د. رضوان السيد حول هذا التشابه في مشروعي الحكايتين: "فكليلةُ ودمنة، وكذا النمر والثعلب لسهل بن هارون ٢١٥هـ، تدخلان في النوع الأدبي المعروف بمرايا الأمراء Furstenspiegel والتي يتمُّ النظر فيهما إلى السلطة والسلطان بمرآةٍ واقعيةٍ فتقوم العلائقُ في مجتمعات" مرايا الأُمراء " على القوة البحتة وتوازُناتها دونما تنظيرٍ كثيرٍ لقضايا الشرعية والمشروعية وحقوق السلطان وواجباته .فالسلطان" جِبلَّةٌ وسعادةٌ"، فلا عِلة لكون السلطان سلطاناُ غير انه سلطانُ في الواقع ونفس الأمر ومما له دلالتُهُ أن يكون هناك أسدُ واحدُ في حكاية الأسد والثور بكيلة ودمنة .وعندما جعل سهل بن هارون في حكايته النمر ملكا على الجزيرة جعل الآخرين البارزين ذئابا وثعالب إشارةُ إلى اختلاف الطبيعة فلا علاقة إذن بين الملك والمجتمع من حيث الطبيعة".[١] وهذه النظرة تنعكس على العلاقة بين السلطان ورعاياه، ومن ثم فالمجتمع عليه أن يخضع وقدر الملك أن يحكم "ولهذا يكون من واجب المجتمع في" مرايا الأُمراء "أن يخضع للسلطة المختلفة عنه طبيعةُ لأنّ هذه هي طبيعة "الأُمور، بل إنّ قَدَرَ الملك نفسه أن يحكم وليس من حقّه أن يتجاهل ما كمن في جبلّتِهِ وما أعانه على إبرازه من الكمون سعادته . وليس الأمر كذلك، في حكاية الأسد والغوَّاص وإن أفاد مؤلّف الحكاية كثيراَ من" كليلة ودمنة " في التفاصيل . فمع أنه يتهرّبُ من احتمال اضطراره كفقيه أن يلي السلطة بنفسه بالقول إنّ السلطة" جِبلُةُ وسعادة "كما في" مرايا الأُمراء "إلُا أنّ الواضح أنُه يعتبر الدولة مشروعا هو وسائر الرعايا بل والسلطان نفسه أجزاء مهمةُ فيه أو أنهم جميعا متساوون في الاندراج في المشروع وفي المسؤولية عنه". [٢]

[١] -مقدمة محقق الأسد والغواص ص ٣٤،٣٥
[٢] - مقدمة محقق الأسد والغواص ص ٣٦

ويمكن ملاحظة ما يلي بالنسبة للمشروع الفكري الذي تطرحه الحكايتان:

أن الناصحينِ (بيدبا والغواص) لم يُقتلا، حيث تمكن بيدبا من إقناع الملك بما جاء من أجله، وقبل الملك منه – بعد لأْيٍ – ثم عرض عليه أن يبقى بجانبه ليشاركه الحكم فقبل، وظل في الحكاية بمثابة المعلم والمرشد والموجه وفيلسوف سلطانه، دبشليم الملك يسأل وبيدبا الفيلسوف يجيب، وظلت العلاقة بينهما قائمة لم تنته بينهما إلا بانتهاء الحكي أو الكتابة آنذاك، أما الغواص فقد نجح في بداية الأمر في هدفه الذي جاء من أجله، ولكنه رفض أن يكون مشاركا في السلطة رفضا قاطعا، واقترح صيغة أخرى، تحقق المواءمة بين ما يطلبه الملك وما يرجوه هو، وهي أن يطلع على علوم الأسبقين ويستخرج المفيد منها للملك ولكن الحاشية رغم عدم مشاركته بشكل مباشر في الحكم تربصت به وظلت به حتي حبسه الملك، ثم تبين الأمر فأخرجه واعتذر إليه، ولكنه رفض رفضا تاما أن يستمر بجوار الملك بأي صورة وآثر الانسحاب من جواره والانعزال في معتكفه، وظل الملك هو الذي يزوره من حين لآخر حتي فرَّق بينهما الموت وهذا يعني أن الغواص لم ينجح في مشروعه كما نجح بيدبا.

مشروع بيدبا كان موجها إلى الملك دبشليم الظالم الذي سار سيرة سوء مخالفا من سبقه من أبائه وأجداده (اعلموا أني أطلت الفكر في دبشليم، وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية، ونحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور، إذا ظهرت من الملوك إلا لنردهم إلى فعل الخير، ولزوم العدل ." [١]

وكان مشروع دمنة كان في الظاهر لخدمة الملك، ولكنه في الحقيقة ليس مشروع أمة، ولكنه مشروع فردي يستغل الظرف الراهن الذي عاشه الملك، ولهذا لا يمكن أن نعد مشروعه مشروعا حقيقيا؛ لأنه تبدت حقيقته من بدايات التفكير في الدخول على الأسد، حين عرض على أخيه كليلة فكرة الرغبة في الذهاب للملك.

أما مشروع الغواص فإنه موجه إلى مصلحة الأمة، ويستهدف وحدة الأرض وأمن المجتمع، فالأسد لم يكن ظالما ولا غشوما، وإنما كان حسن السيرة، وما يقدمه لهذا المشروع ناتج عن إيمان بدور السلطان تجاه المجموع "... إن الله جل اسمه جعل السلطان قواما لعالمه ونظاما يردع به الجاهل عن العاقل، ويرد به الحق عن الباطل، ويمنع القوي عن الضعيف، ويحيي به السنة، وينفذ به أحكام الشريعة [٢]

[١] - كليلة ودمنة نسخة المرصفي ص ٧٤
[٢] - الأسد والغواص ص٨٠

ويمكن أن ندرك بوضوح أن لكل واحد من هؤلاء هدفا سعى إليه يتصل بخدمة المجموع، وربما كان هذا أكثر جلاء في بيدبا، فدبشيليم ملك يمتلك المقومات التي تؤهله ليكون حاكما، وهي مقومات تتصل بالمقومات التاريخية والمقومات الواقعية، تتمثل المقومات التاريخية في أنه صاحب (جبلة وسعادة) فهو ينتمي إلى طبقة أبناء الملوك وهي طبقة الأساورة، التي جعل أهل فارس الحكم فيها وراثة، دون بقية الطبقات التي يتشكل منها المجتمع، وهي أسرة لها باع طويل الحكم ولها رصيد ضخم من الإنجازات على الأرض، " أيها الملك إنك في منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك وشيدوه دونك، وبنوا القلاع والحصون، ومهدوا البلاد، وقادوا الجيوش، واستجاشوا العدة، وطالت لهم المدة، واستكثروا من السلاح والكراع، وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور، فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر... إنك أيها الملك السعيد جده، الطالع كوكب سعده، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عندهم ..." (١)

أما المقومات الواقعية فهي قدرته على إدارة شئون البلاد وسياستها سياسة حسنة، والتزام العدل وحين يفقد الحاكم هذه الصفات يجد المثقفون أنفسم أمام واجب يجب أن يؤدوه وهو رد الحاكم عن بغيه وظلمه وجوره، وكأن العدل وحسن السيرة وحسن السياسة شروط لازمة للاستمرار وإلا أصبحت هناك حاجة لتغيير الملك، والتغيير هنا لا يعني إحلال أي فرد مكان الملك وإنما يحل محله من هو جدير بأن يحل محله من أهل (الجبلة والسعادة) من الطبقة الاجتماعية ذاتها، ولكن الملك بما جبل عليه من سعة الفكر ورجاحة العقل يقبل النصح ويعمل به، وينصلح حال الملك وحال شعبه.

أما الغواص فلم يكن حرصه على تحقيق حسن سياسة الرعية والعدل بينها؛ لأنه لم تكن هذه مشكلته مع الملك فقد كال له الغواص كثيرا من الصفات الحسنة، التي تجعل منه حاكما مثاليا في أخلاقه وسلوكه مع رعيته) وكان حَسَنَ الطَّرِيقَةِ في مملكته محمودا في رعيَّتِهِ قد سَاسَهُم بأمْرَينِ جُمِعَ الحَزْمُ فيهِمَا شِدَّةٌ في غير عنفٍ ولينٌ من غير ضعفٍ ... (٢)

كما أنه صاحب جبلة وسعادة، فهو من أبناء الملوك، ومن ثم لم تكن المشكلة تتعلق بسلوكه ولا إدارة شئون البلاد ومصالح العباد، وإنما كانت المشكلة في التهديد الخارجي القادم على يد الغريب عن الغابة (الجاموس)، ويهدد الوحش ويشردهم عن منازلهم، ويهدد كيان الجماعة وأمنها، ويعبث بسلامة

(١) - كليلة ودمنة ص، نسخة المرصفي ص ٨٨
(٢) - الاسد والغواص ص ٤٩، ٥٠

أراضيها واستقرارها، ومن ثم توجه الغواص نحو الملك لكي يعينه على درء الخطر الخارجي والقضاء عليه .

ولعلنا نلاحظ أن كلا من بيدبا والغواص يؤمنان بشرعية الملك وأنها "جبلة وسعادة"، وأن من يتولى السلطة يجب أن يكون من الطبقة الاجتماعية الأولى، ولكنه يجب أن يلتزم بالسيرة المحمودة وأن يقوم على شئون رعيته كما ينبغي. وحين قصَّر السلطان في واجباته حقتْ النصيحة على المثقف والحكيم لرده إلى الصواب حرصا على استقرار المجتمع والتئامه وانصلاح حال العباد .والحكايتان لا تشيران إلى ما ينبغي عمله في حال رفض الملك النصح من الناصحين، هل سيكون هناك ناصح آخر ويمكنه أن يضحي بنفسه في سبيل ما يراه واجبا وهو نصح الملك مع ما في ذلك من المخاطرة، أم أن من سيأتي لاحقا سيصمت إيثارا للسلامة، أم سيترك ذلك للأيام لعلها تحل ما استعصى على الحكماء.

إن الغواص لم يكن مُجْبرا على أن يدخل في صدام مع السلطان ذلك أن التهديد كان قادما من الخارج وليس من الداخل خاصة أن الغواص أشار باستفاضة إلى سيرة الملك الطيبة، وحسن قيامه على شئون رعيته، والغواص يشير في أكثر من موضع إلى دور السلطان مع رعيته خاصة العدل) إن الوالي إذا هلك من يلي عليه لم يكن له ولاية، والرعية إذا لم يعدل عليها هلكت...."[١]

لقد شارك بيدبا في السلطة حين طلب إليه الملك دبشليم ذلك، وأصبح كاتبا له، حيث كتب له كليلة ودمنة ليكون كتابا خالدا تذكره الأجيال، كما أسهم في إشاعة العدل في الرعية، وتحسنت أحواله مع الرعية، وصارت العلاقة بين الملك دبشليم والمثقف بيدبا علاقة تجانس وتكامل.

أما الغواص فإنه لم يشارك في السلطة، بعد أن قضى على الخطر الوافد، فلم يرض أن يكون جزءا منها على الرغم من إلحاح الملك ولكنه اقترح أن يكون صاحب قراءات متنوعة فتتحقق له المتعة ويتحقق للملك المنفعة بما يقدمه من خبرات يستخلصها من الاطلاع . وصار مقربا من الملك يستشيره في كثير من أموره، ولكنه انصرف عن هذا التعاون بعدما دبرت له الحاشية مكايد كادت تودي به، فآثر الانعزال بعيدا عن الملك الذي كان يأتي لزيارته من حين إلى آخر.

ولكن هل يمكن ردّ ذلك إلى اختلاف الظروف المحيطة بالكتابة آنذاك في كلا الحكايتين؟ فقد كتبت كليلة ودمنة أيام أبي جعفر المنصور وكان يأخذ آنذاك بالشدة والعسف في التعامل مع المخالفين

[١] - الأسد والغواص ص٥٣

والمناوئين والمعارضين، فكان التهديد من الداخل وليس من الخارج، أما حكاية الأسد والغواص فقد كتبت في نهاية القرن الخامس أو الربع الأول من القرن السادس، والدولة آنذاك كانت تعاني من أعداء الخارج[١] الذين كانوا يتربصون بالدولة ويسعون في تقطيع أوصالها والانقضاض عليها في ظل وجود صراعات داخلية بين دويلات مختلفة وجماعات مختلفة فكأن هذه الدولة صارت مهددة حين يتعرض كيانها كله للتهديد.

٤- تشابه القيم

يتشكل لدى كل إنسان منا–والمبدع خاصة– إطار ذهني أوفكري أونفسي أوفني أو غيرها، حول الأفكار والأشخاص والأشياء، وهذا الإطار تشكله كثرة المشاهدات والمسموعات والقراءات والمطالعات المتنوعة، وحين يتشبع به المبدع ويصل حد الامتلاء يتشكَّل الإطار لديه، وقد يكون دينيا أو أخلاقيا أو فلسفيا أو أدبيا.. إلخ، وهو الذي يصبغ فكر الإنسان عموما والمبدع خصوصا بصبغة معينة ويؤدي دورا قويا وبارزا في تشكيل المفاهيم والتصورات والقيم والرؤى لدى القارئ أو المبدع فتشكل ذائقته، فيستجيد ويستهجن ويستحسن ويستقبح، ويُشيد ويشين، وحين يصير المتلقي مبدعا ومنتجا تضبط هذه الأطر نتاجه، ويصبح هذا الإطار بمثابة السياج الذي يتشكل خلاله أو فيه عمليات الإنتاج والتلقي. ." فهو نظام تلتئم فيه خبراتنا وتلتحم، وتنتظم مكونة أبنية متكاملة على حسب ما بينها من تقارب أو تشابه أو تماثل . فخبراتي التي تتذوق الأعمال الفنية تلتئم في كلٍّ أو إطار استطيقي، وخبراتي بميدان البحوث العلمية تلتئم في كل أو إطار آخر، وخبراتي الناتجة عن كثرة مشاهداتي للكتب تلتئم مكونة إطارا خاصا" [٢] ويظل هذا الإطار قائما ومهيمنا إلا أنه قد يكون قابلا للتحول والتبدل بقدر ما يدخل على هذا الإطار من مؤثرات فيه سواء أكان ذلك تعميقا للإطار القائم أم انحرافا عنه في بعض جوانبه أم تحولا عنه بالكلية إذا عظمت المؤثرات الوافدة على الفكر، وصحيح أنه لا يحدث فجأة ويأخذ وقتا طويلا ويكون أشبه بالزحف الهادئ إلا أنه يمكن ملاحظة ذلك بالقياس إلى نقطة النهاية أو اللحظة الحالية مقارنة بنقطة البدء.

(١) أشار محقق الكتاب د. رضوان السيد إلى أن الفترة التي كتب فيها كتاب الأسد والغواص غالبا هي فترة الوزير نظام الملك أيام الملك ملك شاه. وكانت الدولة تعاني من التغلغل الباطني والحملات الصليبية المتتابعة على العالم الإسلامي. للمزيد حول ذلك. انظر كتاب "دولة السلاجقة: وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي " لدكتورعلي محمد الصلابي، الطبعة الأولى2006 ، دار المعرفة بيروت - لبنان.

٢ - د. علي عبد المعطي محمد، فلسفة الفن :رؤية جديدة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص ٢٣٥

وهناك مجموعة من القيم الإنسانية سادت في حكايات الحيوان ذات الصبغة السياسية وكتب مرايا الأمراء، إذ "من ثوابت هذا الأدب الحديث عن القيم الأخلاقية، وذلك من منطلق عناية الآداب السلطانية بالقيم الأخلاقية في كل شيء" [١] ويلاحظ أنها قيم عامة في الكتابات التي تناولت هذا النوع من الكتابة، وتتعلق بالسلطان وما ينبغي له في سلطانه، وبالرعية وما ينبغي لهم في علاقتهم بسلطانهم أو مع بعضهم بعضا. [٢] . "ولعل الوظيفة السياسية، في القص على لسان الحيوان لا تتمثل في كشف الظلم والفساد فحسب، وإنما في وضعها مجموعة من المبادئ والأفكار والمثل السياسية والإدارية، بمنزلة دستور تعليمي، يتخذ قدوة يسير على نهجها الطامحون إلى الحق والفضيلة والعدل" [٣]

ويمكن القول: إن هذه القيم التي سادت في تلك الكتابات تؤطرها قيمة كبرى، تبرز بشكل جلي على ما عداها، وهي قيمة تميز العقل الإنساني؛ [٤] فقد نال هو وما يتصل به أو ينبع منه كالعلم والمعرفة والمشاورة والرأي والحيلة والدهاء وغيرها في "كليلة ودمنة" وفي "الأسد والغواص" حظا عظيما من الاهتمام، وهو اهتمام يتجلى في ثنايا الحكايتين سواء أكان ذلك على شكل أقوال مباشرة أم من خلال سلوكيات الشخصيات في الحكاية التي تتلبسها هذه الصفات من خلال أفعالها أو نواتج أفعالها التي تقع على فاعليها أو من حولهم، أو في ردة فعلهم تجاه المواقف والأحداث.

١-تعظيم العقل:

الحكاية في "كليلة ودمنة" و"الأسد والغواص" مبنية في إطارها العام على وجود قطبين بارزين، وعنصرين متكاملين ومتوازيين أحيانا بشكل ما؛ لكون أحدهما لا يعتد كثيرا بالطرف الآخر في المعاملة أو يهمشه، وهما في الحكايتين: السلطان مقابل المثقف العالم و الفيلسوف، والسلطة إذا كانت تمتلك القوة

(١) - د. أحمد محمد سالم، دولة السلطان: جذور التسلط والاستبداد في التجربة الإسلامية، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٤م ص ١٤

(٢) - وقد ورد عدد منها متجاورا في باب (إيلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند) حيث يقول الفيلسوف " قال الفيلسوف: إن أفضل ما حفِظ به الملك ملكه، وثبت به سلطانه، وكرَّم به نفسه، هو الحلم والعقل، لأنهما رأس الأمور وملاكها، مع مشاورة اللبيب الرفيق العالم. وأفضل ما يستمتع به الناس، والحلم، ثم للملك خاصة؛ فإنه لا شيء أفضل منه ولا أعون... فإن الرجل إن كان شجاعا ولم يكن حليما عاقلا أو كان حليما عاقلا وشاور غير لبيب، فإنه يبهظه الأمر اليسير حتى يُرى فيه القبح والضعف، بجهالته وخطأ رأي أصحابه ونصحائه" كليلة ودمنة ص١٩٠.

(٣) - قحطان صالح الفلاح، الأدب والسياسة، قراءة في قصة النمر والثعلب لسهل بن هارون، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧، العدد الأول والثاني، ٢٠١١م ص٨٥

(٤) - ورد في "رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك في السياسة وتدبير المملكة" تبيانا لأهمية العقل في تصريف شئون الملك يقول:"فإن الإنسان إذا كان علي الحال المحمودة، فإنه يضبط نفسه بعقله عن اتباع لذاته، ويمتنع من أن يغضب إلا في وقت يوجب الغضب، ولا يستعمل منه إلا بمقدار ما تدعو إليه الحاجة" تحقيق وشرح د. محمد سليم سالم، ودراسة د. حسام أحمد عبد الظاهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التراث الحضاري، ٢٠١٨.ص٣٢

والبطش والسطوة فإن العالم والفيلسوف يمتلك العقل والمعرفة والحكمة والرؤية المبصرة، وهو ما له خطورته في الحكاية، فهو يمثل الجزء الثاني من طرفي المعادلة في الحياة. وكونه يأتي في المرتبة بعد السلطان فليس انتقاصا منه ولا تقليلا من شأنه ولا تقزيما لدوره؛ ذلك أن العالِم أو الفيلسوف أو الحكيم لا يحسن العمل إلا إذا كانت منظومة السلطة قوية غير مضطربة؛ لأن ضعفها يعني تهديدا مباشرا لوحدة أرض الوطن وتماسكها واضطرابا في سلامة الجماعة وأمنها، ولن يؤدي دوره كما ينبغي في ذلك الجو المضطرب.

ونجد احترام العقل الإنساني وتبجيله في مواطن كثيرة من "الأسد والغواص، فحين يتناقش الغواص مع صديقه الذي يستشيره في الدخول على الملك لنصحه :"من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان هلاكه في أغلب خصال الخير عليه." [١]

ومن حصاد هذا العقل الفحص عن حقيقة الأمر والبعد عن الإفراط في العقوبة. فحين دسّ أصحاب الغواص عليه واحتالوا للتخلص منه بأكثر من حيلة متقنة إلى درجة أن الملك (ورد عليه ما أذهله) فإن عقل الملك يظل يقظا ويتأني في التعامل مع الغواص فيأمر بحبسه اتقاء لشره –إذا كان منه شر– ثم يظل الفحص عن هذا الأمر شاغل الملك ويظل يتدبر أمره فيه ويحتال حتي وصل إلى جلية الأمر وحقيقة الموقف.

ويشير إلى بعض ما قد يشوش على عمل العقل، أو يضعف من فاعليته، ويحد من كفاءته: "واعلم أن لكل شيء آفة، وآفة العاقل مقاساة الجاهل، كحجر الماس الذي يقطع كل شيء فإذا قرنتَ به الأُسْرُب، فهكذا العاقل لا يقوم له شيء فإذا قرنت به الجاهل لم يقم له. وقد قيل إذا أردت أن تفحم عاقلا فأحضره جاهلا"... وقيل: المتواضع من العلماء أكثرهم علما، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء. وقال بعض الحكماء: من أنزل نفسه بمنزلة العاقل أنزله الناس بمنزلة الجاهل، ومن رضي عن نفسه سخط الله والناس عليه" [٢].

ويرد العقل في كليلة ودمنة وما يتصل به بشكل لافت للنظر بوصفه أعظم ما يتصف الإنسان عامة والملك خاصة، ويلحظ هذا بداية من مطلع "باب عرض الكتاب لابن المقفع" في الأسطر الأولى منه

[١] الأسد والغواص٥٩، ٦٠
[٢] -الأسد والغواص٦٢،٦١

"ولم يزل العقلاء من أهل كل زمان يلتمسون أن يُعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل..." [١] ويلح ابن المقفع في مقدمته على إعمال العقل وعدم تحييده لأي سبب كان حتي فيما شاع بين الناس أنه صدق؛ فشيوع أمر لديه لا يعني بالضرورة أنه صادق، "فالعاقل لا يزال للهوى متَّهِما. وينبغي ألا يقبلَ من أحد وإن كان صدوقا إلا صدقا..." [٢]

وفي باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب كتاب "كليلة ودمنة" يأتي العقل بوصفه أفضل ما أنعم الله به على الناس ورزقهم. "وأفضل ما رزقهم الله ومنَّ به عليهم العقل الذي هو قوة لجميع الأشياء، فما يقدر أحد من الخلق على إصلاح معيشة، ولا اجترار منفعة، ولا دفعِ مضرة إلا به. وكذلك طالب الآخرة المجتهدُ على استنقاذ روحه من الهَلَكةِ. فالعقل هو سبب لكل خير" [٣].

وهو لا يرى امتياز العقل الإنساني هبة تُمنح لصاحبها بلا جهد أو عناء، بل يحتاج الأمر إلى صقل وتهذيب، فإذا استوى ونضج تجلى أثره في شتى شئون المرء، فيما يعود عليه بالنفع، أو يدفع عنه الضر. يقول: "وهو مُكتسَب بالتجارب والآداب، وغريزة كامنة في الإنسان ككمون النار في الحجر والعود؛ لا تُرى حتي يقدحها قادحٌ من غيرها يُظهر ضوءها وحريقها. كذلك العقل من الإنسان لا يظهر حتي يُظهره الأدب وتقويه التجارب، فإذا استحكم كان هو وليَّ التجارب والمقوِّي لكل أدب، والمميز لجميع الأشياء، والدافع لكل ضرٍّ. فلا شيء أفضل من العقل والأدب. فمن منّ عليه خالقه بالعقل، وأعان هو نفسه بالمثابرة على الأدب والحرص عليه، سَعد جدَّه، وأدرك أمله في الدنيا والآخرة. والعقل هو المقوي الملكَ السعيدَ الجدّ، الجليلَ المرتبة، ولا تصلح السُّوقة إلا عليه وعلى تدبيره"" [٤] . فخير الدنيا والآخرة –كما يرى– منوط بالعقل الإنساني، والعبارة الأخيرة تبرز قيمة العقل الكبرى في تدبير شئون الملك، حكاما ومحكومين، خاصة قوله: "لا تصلح السُّوقة إلا عليه وعلى تدبيره"

وقد جاء في كتاب "كليلة ودمنة" عدة أمور يتجلى فيها كمال العقل الإنساني، (بعضها يتعلق بخصال صاحبها من الداخل، وبعضها يتعلق بدائرة المقربين كالأصدقاء والأهل، وبعضها يتصل بالملوك وما ينبغي أن يكون عليه معهم، وبعضها دائرته أوسع تشمل كل الناس)، ففي "باب توجيه كسرى

[١] - كليلة ودمنة ص٣ .
[٢] - كليلة ودمنة ص ١١
[٣] - كليلة ودمة ص١٤
[٤] - كليلة ودمنة ص ١٤ ط

أنوشِروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب" فقد ورد في كلام الهندي الذي عرف سبب قدوم برزويه لبلاد الهند :" واعلم ان عقل الرجل يستبين في أمور ثمان: الأولى منها الرفق والتلطف، والثانية أن يعرف الرجل نفسه ويحفظها، والثالثة طاعة الملوك وتحري ما يرضيهم، والرابعة معرفة الرجل بموضع سره، وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه، والخامسة أن يكون على أبواب الملوك حُوَّلا أريبا، ملِق اللسان. والسادسة أن يكون لسره ولسر غيره حافظا، والسابعة أن يكون قادرا على لسانه فلا يلفظ من الكلام إلا ما قد روَّى وقدَّره، والثامنة إن كان في المحفل لم يُجب إلا بما يُسأل عنه، ولا يُظهر من الأمر إلا ما يجب عليه" [١]. ثم يشير الكتاب إلى عاقبة هذه الأمور كلها: "فمن اجتمعت فيه هذه الخصال الثمانية كان هو الداعي إلى نفسه الخيرَ والربح، والمجنِّب نفسه الشرّ والخسران" [٢]

وجاء في باب بروزيه الطبيب: "ووجدت الناسك قد فكَّرَ فَعَلَته السكينة، وشكر فتواضع... فإن استكمل العقل وأبصر العاقبة أمن من الندامة" [٣]

وتتكرر الدعوة الصريحة إلى أن يُعمل الإنسان عقله في كل شأن من شئونه، حتى وإن كان الأمر يتعلق بالأديان الموروثة عن الآباء والأجداد، فقد جاء في "باب برزويه الطبيب من كلام بُزُرجِمِهر بن البختكان"، حرص واضح من برزويه على النظر في الأديان حين رأى اختلاف أصحابها اختلافا بينا وعداوة بعضهم لبعض :"فرأيت أن أراجع علماء أهل كل ملة، وأناظرهم، فأنظر فيما يصفون، لعلي أعرف بذلك الحق من الباطل، فأختاره وألزمه على ثقة ويقين، غير مصدِّق بما لا أعرف، ولا تابع لما لم يبلغه عقلي..." [٤]. فهو مصرٌّ على أن يُعمل عقله في أكثر الأمور ثباتا والتصاقا بالإنسان وهي دينه. وهو بذلك لا يترك مساحات لما هو بعيد عن العقل الإنسان، ويستشعر قدرته على التميز في كل شأن أيا كان.

ونجد في "كليلة ودمنة" حضورا قويا للفظة (العقل) و(العاقل) [٥] أو ما يشبههما (مثل ذا الرأي، اللبيب..) متبوعة بفعل أو قول ينبغي أن يلزمه أو أن ينأى بنفسه عنه. [٦]

---

[١] - كليلة ودمنة ص ١٩

[٢] - كليلة ودمنة ص٢٠،١٩

[٣] - كليلة ودمنة ص٣٥

[٤] - كليلة ودمنة ص٣٠

[٥] - وردت هذه الكلمة ٣٩ مرة في مواضع مختلفة ودايما ما يأتي بعدها سمة أو سلوك مما يتصف العاقل.

[٦] - ونجد هذا بشكل واضح في الأدب الصغير لابن المقفع، حيث نجد فقرات كثيرة (١٥ فقرة) تبدأ بـ :على العاقل" ثم يورد ما يكون من صفاته وخصاله. االأدب الصغير، تحقيق وضبط وائل حافظ خلف، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م. الألو ص٢٦إلى٣٣

"قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بصالح الإخوان شيئا من العُقَد والمكاسب؛ لأن الإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمواسون عند ما ينوب من مكروه" [١]

وكقوله: "فإن ذا العقل يفكر في الأشياء قبل ملابستها، فما رجا أن يتم له أقدم عليه، وما خاف أن يتعذر عليه انصرف عنه" [٢]

جاء في باب البوم والغربان على لسان وزير الملك: فإن الفضل المقسوم لم يقيض للجمال ولا للحسب ولكنه وكِّل بالعاقل المستمع من ذوي العقول" [٣]

ويشير كليلة ودمنة إلى أمر يضعف من فاعلية العقل الإنساني وهو الفقر، بل يراه (رأس البلاء)، "فالفقر رأس كل بلاء، وداعية المقت إلى صاحبه، وهو مسلبة للعقل والمروءة، ومذهبة للعلم والأدب، ومعدنٌ للتهمة، ومجمعة للبلايا"[٤]

وهذه النظرة المشبعة باحترام العقل الإنساني "تتأكد النزعة الإنسانية لدى ابن المقفع من خلال معاينته للإنسان بشكل مطلق دون اعتبار جنسه أو عقيدته، بالاستناد إلى خصائصه الجوهرية. فقد اختص الإنسان من بين سائر الحيوان بأربعة أشياء، يعتبرها جُمَّاع ما في العالم وهي: الحكمة والعفة والعقل والعدل. لكن أفضل ما رزق الإنسان العقل الذي هو الدعامة لجميع الأشياء..." [٥]

٢-العلم والعمل به:

للعلم قيمة كبرى لدى العالم والفيلسوف، وهو شرف في ذاته، يرفع قدر صاحبه ومعلمه. فبه يتوجه للسلطان، وبه يشير عليه، وبه ينفذ إلى ما يريد من الرأي والنصيحة والمشورة بما يحقق المنافع والمصالح. يقول الغواص بعد سؤال الملك له عن منفعة العلم:"أيها الملك! كل شيء يؤثر ويراد إنما يراد لأحد سببين: إما لسبب يرجع في نفسه، كالعلم الذى إنما يراد لنفسه وشرفه وقدره لا لغيره، والذى يراد

---

[١] - كليلة ودمنة ٢ص١٢٥، ونجد كثيرا من الأمور التي ينسبها إلى العاقل وما يجب أن يكون عليه ومنها:
- وإنما ينبغي للعاقل أن يلتمس من الأمور ما يرجو دَرَكه، ويترك طلب م لا يقدر عليه، لئلا يعد جاهلا" كليلة ودمنة ص١٢٩
- وليس ينبغي للعاقل أن يغترَّ بصلح العدو ومصاحبته، فإنه يكون كصاحب الحية التي وجدها وقد أصابها البرد فأخفاها، فلما دفئ النهار عليها ووجدت سخونة الثياب، تحركت فهنشته" كليلة ودمنة ص١٣٠
- ولا يستأنس العاقل إلى عدوه الأريب، بل ما يستوحش منه أكثر" كليلة ودمنة ص١٣٠
[٢] - كليلة ودمنة ص٨٩
[٣] - كليلة ودمنة ص١٥١
[٤] - كليلة ودمنة ١٣٧
[٥] - د. عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري: جدلية الحضور والغياب، دار محمد علي الحامي، صفاقص تونس، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية سوسة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ص٢٤٧

لغيره فكالمال فإنه لا يراد لنفسه، وإنما يراد لتقضى الحوائج به، والعلم يجمع بين هاتين الخلتين فإنه يراد لأجلهما إذ كان مع شرفه في نفسه ينتفع به في غيره. والناس كلهم ينتفعون بالعلم والحكمة ولكن الملوك أكثرهم منفعة به؛ لأن العلم إذا كان في غير الملك لا يجاوزه نفعه. وإذا كان في الملك انتفع هو به وجميع أهل مملكته ورعيته وأحوج الناس الى العلم أحوجهم الى التدبير والتقدير" [١]. وهذا يعني أنه يجعل العلاقة بين العلم والحاجة للتدبير علاقة طردية، فكلما زاد علم المرء زادات قدرته عل التدبير. بل أنه يرى أن أي تدبير بغير علم لن تقوم له قائمة، وسيكون تدبيرا فاسدا "وكل تدبير بغير علم واهٍ، وكل تقدير بغير كلمة فاسد، ولذلك قيل : إذا أراد الله بقوم خيرا جعل العلم في ملوكهم أو الملك في حكمائهم. وأقدر الناس على العلم أبسطهم في المعرفة، وأعرفهم في التدبير أوسعهم حيلة، وأوسعهم حيلة أحقهم بالغلبة.... والعلم يقوى الجزء القياسي المميز بين الأشياء، ويمرنه ويروضه ويهذبه، وبهذا الجزء يكون الرأي والتدبير والتمييز والتقدير" [٢]

ثم يقول للملك حين سأله: مراد العلماء بعلومهم؟. "إن صاحب العلم لا يقصد بالعلم وجوه المنافع، وإنما يريد العلم لنفسه ثم المنافع" [٣].

ويبرر الغواص لصديقه الناصحِ له سبب إقباله على السلطان على الرغم من كونه من المحبين للدعوة والعلم، والزاهدين في خدمة السلطان [٤] ؛ لأنه يتحرك ضمن إطار فكري ضابط له، ويفعل ذلك وفق مبدأ يؤمن به إيمانا جازما لا يتزعزع، وهو أن ما لديه من علم يجب أن يكون للعمل وإلا أصبح علمه حجة عليه: "إني أخشى أن يكون علمي حجة عليَّ، فإن السعيد من استعمل نعمة الله فيما يقربه إليه، فتكون الفضيلة التي أوتيها سببا لفضيلة أكبر منها، ويجعل من شكره عليها أن يستعملها في طاعة واهبها، جعلنا الله وإياك ممن انتفع بعلمه، ولم يكن علمه حجة عليه في التقصير عليه، فإن الجاهل أعذر من العالم المقصِّر. اللهم لا تجعل ما آتيتني من فضلك سببا للعقوبة منك بالتقصير في لوازمه أو وضعه في غير مواضعه، فيكون إحسانك إلي سببا لعقوبتك لي ومنَّتك عليَّ سببا لسخطك عليَّ" [٥]

---

[١] - الأسد والغواص١١٦،١١٧

[٢] - الأسد والغواص ص١١٦،١١٧

[٣] - الأسد والغواص ص١١٦،١١٧

[٤] - يقول صديق الغواص: "وقد قالت الحكماء ينبغي للعاقل أن لا يكتسب إلا بأزيد مما فيه، ولا يصحب إلا المقارب له في خُلقه، وليست آلة صحبة السلطان أزيد ما فيك، ولا هذا الملك ممن تثق بمقاربة خلقه. فقل لي كيف نشطتَ لهذاولا أعرفك إلا محبا للدعوة، قد شغلك العلم عن التعرض لغيره، وقلَّ من استفرغه أمر فكان له نفاد فيما سواه" ص ٥٧

[٥] -الأسد والغواص ٥٨

ويشير صاحب الأسد والغواص إلى قيمة العلم حيث يمكن صاحبه من الاستفادة منه حيث يمكنه من تحويل الجمادات إلى أدوات بحيث يحول ضعفه إلى قوة تمكنِّه من فعل ما يعجز عنه بقدرته الذاتية التي يمتلكها، يقول الغواص حين عرض على الأسد أن يخلصه من خطر الجاموس على الرغم من ضعف بنيته مقارنة بالجاموس: "قال: ما عساك تبلغ من الجاموس مع ضعفك وقوته؟ ولئن كانت نفسك عارفة فليس لك من الجسم والقوة ما تقدر على مباطشته"(١).

ولكن رد الغواص يشير إلى دور العلم في التحول من الوعي النظري بالفكرة إلى تنفيذها على الأرض، وتحويلها بما يشبه تكنولوجيا من خلال إعمال العقل، بما يحقق نص القوة الجسدية: "قال له : أيها الملك إن ذا المعرفة يقدر بمعرفته أن يجعل الجمادات قوة وآلة في بلوغ حاجته حتى تصير كأنها بعض أعضائه، أو كأنها جزء من أجزائه... وأنا أؤمل أن أجعل من غيرى آلة لي في بلوغ محبوب الملوك تقومُ لي مقام بعض أعضائي المنصرفة على إرادتي" (٢).

والغواص لإدراكه العميق بشرف العلم وسمو مكانته لا يستبدل بالعلم شيئا، فهو ينأى بنفسه عن السلطة ولا يرغب في الانغماس فيها على الرغم من مغرياتها، فهو –فيما يبدو– يرى أن مجاله ليس مجال الفعل ولكن مجاله الفكر والرأي وليس العمل على الأرض: "قال اجعلني أعرض عليك عقول الناس وآراءهم وأخبارهم وأفتش لك عن زبد العلم والحكمة، فأباشر المشقة في البحث عنه، وتنال أنت المنفعة به .... فقد كانت الملوك تتخذ الحكماء معرفة منهم بقدر العلم ونفعه، فتكفي العلماءُ الملوكَ مشقة البحث والتعب، وتكفي الملوكُ العلماءَ مؤنة العيش والطلب ويظفرون بالمنفعة من غير مشقة " (٣) .

ثم يشير عليه بمعرفة تجارب السابقين من خلال قراءة كتب السابقين والأولين؛ لأن التاريخ قد يعيد نفسه، والحوادث قد تتكرر وتتشابه "لأن الأمور أشباه بعضها ببعض" (٤)، ثم يقول له الغواص: "وقد قالت الحكماء: كل شيء محتاج إلى العقل، والعقل محتاج إلى التجارب، وقالوا: عليك بعلوم أصحاب التجارب فإنها تقوم عليهم بالغلاء وعليك بالمجان. والأمور أشكال وأشباه يُستدل ببعضها على بعض. وقد يَرِدُ على المرء ما لم يجرب، فيكون ما جرب دليلا عليه" (٥)

(١) - الأسد والغواص ص٨٣
(٢) - الأسد والغواص ص٨٣
(٣) - الأسد والغواص ص ١١٤
(٤) - الأسد والغواص١١٥
(٥) - الأسد والغواص١١٦،١١٥.

والغواص يفصل بين امتلاك المعرفة والقدرة على الفعل، فمن يمتلكها لا يعني بالضرورة القدرة على الفعل. قد يكون المرء أعرف الناس بالتدبير وأعجزهم عن المباشرة. كما أن منهم العالم الذى لا يعمل بعلمه" [١] . ثم يقول الغواص بعدها أيضا: "إن المرء إنما يتدبر الأمور بالرأي ويباشرها بالهوى، وما كل من عرف الصواب عمل به، ألا ترى أن العليل ربما عرف دواء فاستبشعه ولم يستعمله، فلا يغنيه معرفته به في شفاء علته..."[٢] بل إن الغواص نفسه يرى أنه ممن يمتلكون المعرفة ولا يمتلكون القدرة على التنفيذ "[٣]. وأظن أنه لا تناقض بين ما يقوله وما يجب أن يفعله، ولكن ربما قصد أن هناك منظِّرا للفكرة، يحدد خطوطها وملامحها المميزة وآليات تنفيذها لكنه لا يعني بالضرورة قيامه على التنفيذ.

ونجد في كليلة ودمنة إلحاحا واضحا على ضرورة العلم والحرص عليه، في عدد من مواضع الكتاب، ففي باب عرض الكتاب لابن المقفع يتكرر هذا الأمر بشكل لافت :

- "والعلم ينجي من استعمله، ومن عَلِم ولم يستعمل علمه لم ينتفع بعلمه" [٤]
- "والعلم لا يتم لامرئ إلا بالعمل. والعلم هو الشجرة، والعمل هو الثمرة، وإنما يطلب الرجل العلم لينتفع به، فإن لم ينتفع به فلا ينبغي أن يطلبه" [٥]
- "ومن لم ينتفع بمعرفته كان كالمريض العالم الذي يعلم ثقيل الطعام من خفيفه ثم تحمله الشهوة على أكل الثقيل منه" [٦]
- "ومن كان يطلب العلم ليعلِّمه غيره وليعرفه سواه، فإنما هو بمنزلة العين التي ينتفع الإنسان بمائها وليس لها من تلك المنفعة شيء" [٧]
- "وقد نرى بعض من يقرأ هذا الكتاب فيتعجب منه ويجهد نفسه في حفظه ويترك العمل به"[٨]

---

[١] - الأسد والغواص ٧٤

[٢] - الأسد والغواص ص٧٤

[٣] - الأسد والغواص ص١١١ يقول الغواص:" قال له الغواص: أيها الملك، إن اللطف الذى رأيت منى في العلم دون العمل، وما كان من علم عمل، ولا كل من علم صبر على جنايات العمل، ولست أقدر على العمل إلا ريثما أتكلفه والتكلف قليل اللبث سريع الزوال". ص١١١

[٤] - كليلة ودمنة ص ٦

[٥] - كليلة ودمنة ص ٦

[٦] - كليلة ودمنة ص ٧

[٧] - كليلة ودمنة ص٧

[٨] - كليلة ودمنة ص٧

- "ويبنغي لمن طلب أمرا أن تكون له غاية ينتهي إليها، فإنه من أجرى إلى غير غاية أوشك أن يكون فيه عناؤه وتقوم فيه دابته" [١]
- وحين يحرض دمنة الثور على مقاتلة الأسد يقول له دمنة:"فإنك تحسن القول، ولا تُحكم العمل، وقد قيل ليس شيء أهلك للسلطان ممن كان كذلك. وهذا الذي غرَّ الأسد منك. ولا خير في الكلام إلا مع الفعل" [٢]

وهذا الجمع بين العلم والعمل، بين الاكتساب النظري والواقع العملي نجده جليا في كليلة ودمنة، حين ذهب الفيلسوف بيدبا لتقويم الملك الظالم دبشليم. يقول الفيلسوف مخاطبا تلاميذه ": اعلموا أنى أطلت الفكر في دبشليم، وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر، ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية، ونحن نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور، إذا ظهرت من الملوك إلا لنردهم إلى فعل الخير ولزوم العدل، ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزم وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا، إذ كنا في أنفس الجهال أجهل منهم، وفي العيون عددهم أقل منهم. " [٣]، وهو يضع عدة بدائل لمواجهة ظلم الملك، ولا يجد مفرّا من القيام بدوره ووجوب النصيحة للملك، مهما كلفه الأمر. [٤]

وهو يتحرك باتجاه نصح الملك وفقا فيما يبدو لواجبات أخلاقية وأسس علمية رسخها حكماء قبل بيدبا، وهو يتصرف في ضوئها مهتديا بها: "لأنى كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول: إن الملوك لها سورة كسورة الشراب، فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ العلماء وأدب الحكماء. والواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء. والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم؛ ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل. فوجدتُ ما قالت العلماء فرضا واجبا على الحكماء لملوكهم؛ ليوقظوهم من رقدتهم؛ ... فكرهت أن يموت أو أموت وما يبقى على الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان

---

[١] - كليلة ودمنة ص٩

[٢] - كليلة ودمنة ص٨٩

[٣] - كليلة ودمنة، تحقيق المرصفي ص ٧٤

[٤] - "وليس الرأي عندي الجلاء عن الأوطان، ولا يسعنا في حكمتنا بقاؤه على ما هو عليه من سوء العشرة وقبح الطريقة. ولا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا، ولو ذهبنا نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاودته، وإن أحس منا بمخالفته وانكارنا سوء سيرته كان في ذلك بوارنا، وقد تعلمون أن مجاور السبع والكلب والحى والثور على طيب الوطن ونضارة العيش لغدر بالنفس. وإن الفيلسوف لحقيق أن تكون همته مصروفة الى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه، ولواحق المحذور، ويدفع المخوف لاستجلاب المحبوب. كليلة ودمنة، نسخة المرصفي ص ٧٤.

عليه. فإن قال قائل: إنه لم يمكنه كلامه خوفا على نفسه، قالوا: كان الهرب منه ومن جواره أولى به؛ والانزعاج عن الوطن شديد؛ فرأيت أن أجود بحياتي؛ فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي بعذر، فحملتها على التغرير أو الظفر بما أريده " [١] .

ويرِد في كليلة ودمنة الربط بين العلم وفضائل أخرى:" قال الفيلسوف: كما أن الرجل لا يبصر إلا بعينيه، ولا يسمع إلا بأذنيه، كذلك العلم، إنما تمامه الحلم والعقل والتثبت، غير أن القضاء والقدر يغلبان كل شيء" [٢]

ونجد ربطا بين العلم والتجربة لدى ابن المقفع، فقد أورد في مقدمته: "وحقٌّ على المرءِ أن يكثر المقايسة، وينتفع بالتجارب. فإذا أصابه الشيء فيه مضرة عليه حَذِره وأشباهه، وقاسَ بعضه ببعض، حتى يحذر الشيء بما لقي في غيره؛ فإنه إن لم يحذر إلا الذي لقي بعينه لم يُحكِم التجارب في جميع عمره، ولم يزلْ يأتيه شيء لم يكن أتاه بعينه. فأما الذي ينبغي ألَّا يدعه على حال فأن يحذر ما قد أصابه. وينبغي له مع ذلك أن يحذر ما يُصيب غيره من الضرر حتي يسلم من أن يأتيه مثله" [٣]

٣- المشاورة:

تأخذ المشاورة حيزا ظاهرا في كلا الكتابين ذلك أنها خلاصة نتاج العقل، وهي تفضي إلى اختيار الأنسب للكافة من بين مجموعة ممكنات، لذلك نجد " إنه من اللافت للانتباه حقا أن نلاحظ أن الأغراض المتعلقة بالاستشارة من طلب الرأي أو النصيحة أو التفكير ومحاولة تدبير الحل الأسلم أو الأنجع في معضلة طرأت أو ترجيح الآراء والحلول أو المساجلة في سبيل اختبار المسلك الأقوم تمثل النواة الجامعة لجلِّ ما في الكتاب حتى إن القصة لتغدو مجرد ظل باهت أو بالأحرى مجرد أداة ساهمت في تعديد وجهات الاستشارة وتوفير أسبابها" [٤] . والمشورة ليست فقط في مجال السياسة والسلطان وإنما هي تصلح في كل شأن من شئون الحياة، "وينبني غيرها شيئا فشيئا من خلال تبادل الآراء حول المسألة موضوع

[١] كليلـة ودمنة، نسخة المرصفي ص ٧٤،٧٥

[٢] - كليلة ودمنة ص٢٦٧

[٣] - كليلة ودمنة ص ١٠ ط

[٤] - بسمة عروس، التفاعل في الإجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة من القرن الثالث إلى القرن السادس، منشور كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس٢٠٠٨، ص ١٩٠.

الاستشارة واختيار صواب كل رأي ووجاهته ومقارعة الحجة بالحجة للظفر في النهاية بتحقيق الاقتناع، وهو ما يمثل تحقق المشورة ونهاية الحوار" [١]

ونجد في كليلة ودمنة إلحاحا على فكرة المشاورة، لما لها من فوائد جمة تعود بالنفع على صاحبها، حتى لو كان المستشير أفضل فيما يستشير فيه، فإن الاستشارة تزيده بصرا بالأمر "ولا بدَّ لمن نزلت به نائبة من استشارة الناصح، وطلب من يعاونه على الرأي، ويفضي إليه، فإن المستشير وإن كان أفضل من المستشار رأيا، فإنه يزداد بالمشورة رأيا وعقلا، كما تزداد النار بالودك ضوءا. وعلى المستشار موافقة المستشير على صواب ما يرى، والرفقُ به في تبصيره ورده عن خطأ رأي –إن كان منه– وتقليب الرأي فيما يشكل عليه حتى يستقيم لهما سرهما، فإن لم يكن المستشار كذلك، فهو على المستشير مع عدوه" [٢]. فالمستشار لا بد أن يكون صادقا في نصحه فلا يجاري المستشير في هوى يميل إليه إلا فيما كان صوابا، أما إذا كان ما يهواه المستشار غير صواب، فيجب استخدام اللين في ردّه عن ذلك، فإن المستشير إن لم يخلص النصح كان كعدو المرء؛ لأنه قد يوافقه على ما فيه مضرة له موافقةً لهواه.

وحين يبحث طالب المشورة عن الرأي في أمر، فيجب عليه ألا يبحث عن أعذار ومسوغات يُرضي بها نفسه وهواه، تبعده عن صدق المشورة "وعرفت أنه من التمس الرخص من الإخوان عند المشاورة والأطباء عند المرض والفقهاء عند الشبهة فقد أخطأ الرأي، وزاد في المرض واحتمل الوزر" [٣]

وجاء في باب البوم والغربان على لسان أحد وزراء الملك:"فإن الملك المُشاور المُؤامر، يصيب في مؤامرته ذوي العقول من نصحائه من الظفر، ما لا يصيبه بالجنود والزحف وكثرة العدد. فالملك الحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأي الوزراء الحَزَمة، كما يزداد البحر بموادّه من الأنهار" [٤] وفي باب إبلاد وإيراخت وشادرام ملك الهند. قالت زوجة الملك لزوجها حين اهتمَّ لرؤيا رآها فأحزنته :"أو ما تعلم أن أفضل الرأي للملك، إذا وقع به الأمر الذي يَبهظُه، أن يشاور أهل نصيحته ومودته ومن يهمه أمره وهمه ما أحزنه" [٥]

[١] بسمة عروس، التفاعل في الأجناس الأدبية ص١٩٨.
[٢] - كليلة ودمنة ص١٥١،١٥٢
[٣] - كليلة ودمنة ص٧٦
[٤] - كليلة ودمنة ص١٥٠
[٥] - كليلة ودمنة ص١٩٤

وإذا كنا نجد في كليلة ودمنة حرصا دائما على استشارة الحكماء والعقلاء وأصحاب الخبرة فإننا نجد أحيانا حاجة إلى مشورة عامة الناس حين لا يجد الحكماء بجانبه، يقول وزير أحد الملوك:"وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن ما يُتوارث ويسري في الجنس صعب الزوال؛ ولكن سبيل الإنسان إذا أراد أن يباشر أمرا من الأمور، وكان بالقرب منه رجل حكيم، أن يسأله ويشاوره ويأخذ رأيه فيه. وإن لم يكن بالقرب منه، فسبيله أن يشاور العوام فيه ويطلب البحث معهم والتفتيش، فإنه بهذا يمكنه أن يعلم ما في عاقبة هذا الأمر من الخير أو الشر عندما يُمْعن الفحص والتنقيب" [١]

بل إنه يجعل من فطنة المرء أن يشاور عدوه إذا كان صاحب عقل ورأي، ووجد داعيا لذلك. "فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه، إذا كان ذا رأي في الأمر الذي يشركه فيه". [٢]

ويلحُّ صاحب كتاب الأسد والغواص على فكرة الشورى في أكثر من موضع، ويخصص بابا كاملا تحت عنوان (مشاورة الصديق لصديقه، وما في ذلك عليه من ضر ونفع، وفيه أيضا دليل على أن الحيلة والمكيدة غير محظورة إذا أدت إلى صلاح الجملة" [٣] . وهو يعدد فيه بعض النصائح التي تحث على قيمة المشاورة وأهميتها لصاحبها . كقوله: "وقد قال بعض الحكماء: إذا كنت مُستشيرا فتوخَ ذا الرأي والنصيحة. [٤] ومما أورده كذلك، "وقد قيل: من أعطى أربعا لم يمنع أربعا: ... ومن أُعطي المشاورة لم يُمنع الصواب. وقيل: ما أُستنبط الصوابُ بمثل المشاورة، ولا حُصِّنت النعم بمثل المواساة، ولا أُكتسبت البغضة بمثل الكبر. وقيل: المستشير لا يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا. وقيل: المستشير بين صواب ينفرد بنفعه أو خطأ يشاركه فيه غيره. وقال بعض البادية: ما أخطأت قطُّ حتى يخطئ قومي! قيل وكيف ذاك؟ قال: لأني لا أفعل شيئا حتى أستشيرهم."" [٥]

ويحرص الغواص –حين نوى الافتراق عن الملك والانعزال عن الناس– أن يوصي الملك بالمشورة: "واعلم أيها الملك أن رأس التدبير المشورة"(٦). "وقد قيل : قلوب الملوك كالمصابيح تضيء بالرأي المستفاد وتنطفئ إذا انقطعت عنه المواد" [١].

---

[١] - كليلة ودمنة ص٢٢٥

[٢] - كليلة ودمنة ص٦٤

[٣] - الأسد والغواص ص ٩٣

[٤] - الأسد والغواص ص ٩٣

[٥] - الأسد والغواص ص٩٥

[٦] - الأسد والغواص ١٩٨ ثم يقول له مشيرا إلى بعض ما يتوجب مراعاته عند طلب الرأي وما يستحق الإعلان وطلب الرأي فيه وما يستحق الإخفاء واستخدام الحيلة في توليد الآراء.:" وإذا أمنت ما في إبداء الرأي من المضرة، فإن من الأمور ما المضرة عند

وقد قام الغواص بدور النصيحة أيضا وحرص عليه، وهو ما جلب عليه بعض المتاعب والمآزق والمخاطر التي كادت تُودي به: " فإذا كان الأسد قد اعتقد علي ذنبا، فلست أعلمه، إلا أنى خالفته في بعض رأيه نصيحة له، فعساه أن يكون قد أوَّل أمرى على الجرأة عليه والمخالفة له، ولا أجد لي في هذا المحضر إثما؛ لأني لم أُخالفه في شيء إلا ما قد ندر من مخالفة الرشد والمنفعة والدين، ولم أجاهر بشيء من ذلك، وعلى رؤوس جنده وعند أصحابه، ولكنى كنت أخلو به وأكلِّمه سرا كلام الهائب الموقر، وعلمت أنه من التمس الرخص من الإخوان عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة فقد أخطأ منافع الرأي. وازداد فيما وقع من ذلك تورطا، وحمل الوزر. وإن لم يكن هذا فعسى أن يكون ذلك من بعض سكرات السلطان" [٢]

٤-النصح:

نال النصح أهمية كبرى في الحكايتين، والناصح دوما صاحب علم وحكمة وخبرة وتجربة، يحرص على أن يخرج المنصوح من مأزق قد وقع فيه، أو احتار بين أمرين وعجز عن الاختيار بينهما، أو غُشّ وخُدع فتأتي النصيحة لتكشف عما عُمِّي عليه، وغير ذلك مما يرد في كلتا الحكايتين. والناصح غالبا هنا هو العالم الفيلسوف الحكيم والمنصوح هو غالبا السلطان/ الملك "وإنما الملك كالنفس والناصح كالأعضاء المستخدمة، وعلى هذا المثال اتخذ الملوك الوزراء". [٣]

وفي الأسد والغواص يحرص الغواص عند عزمه الدخول على الملك، على اختيار التوقيت الملائم للنصيحة، حرصا على أن تنجح وتؤتي ثمارها، وهو يطرح نصيحته في ضوء رؤية كلية لواجبات الرعية تجاه سلطانها، وواجبات السلطان تجاه رعيته، "حتى إذا رأى الملك يوما من الأيام فرح القلب، نشيط النفس، كان إنما ينتظر مثل ذلك منه، قال: في مثل هذا الوقت تنجح نصيحتي وتقدم إليه وقال: أيها

إظهاره بالمشاورة أكثر من المنفعة، فإذا وقع ذلك فسل عن أمثاله وأشباهه، وسل عما يتحقق منك أن تعلمه، يحمل ذلك سؤالك عما تعلمه، واستشر فيما لا حاجة لك إليه، فيحمل ذلك على استشارتك في غير ذلك" ص ١٩٨، ثم يقول بعدها له:" ومما وصاه به أيضا: "وقال بعض الحكماء: لا يقعن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأى غيرك، فإنك لست تريد الرأي للفخر به ولكنك تريده للإنتفاع به. ولو أنك مع ذلك لو أردت الذكر لكان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل العصر أن يقال لا ينفرد برأيه دون استشارة ذوى الرأي .

[١] - الأسد والغواص ص١٩٨.

[٢] - كليلة ودمنة ص ٧٧

[٣] - الأسد والغواص ص٧٣

الملكّ! إنه قد يجب على العبد أن يبذل جهده في نصيحة مولاه، كما يجب على المولى أن يصرف عنايته إلى ما يصلح عبده....[١]

وحين يطرح الغواص النصيحة لا يحرص على أن يلزم المنصوح الأخذ بنصيحته، بل يترك له الخيار في أن يأخذ بها إن رأى فيها خيرا أو لا يأخذ؛ فالأخذ والترك عائد إليه. "كذلك يجب على العبد أن يعرض على سيده ما عنده من رأي ونصيحة، فإذا كانت صوابا استعملها فنفعته، وإن كانت غير صواب اطَّرحها فلم تضره، وربما أراد العبد الصواب فلم ينله، وطلب الحق فلم يظفر به، فيحمل منه على نيته التي قصد .... وإنما المعول على النية والطوية..." [٢]

ويقول الغواص في موضع آخر مؤكدا فكرة وجوب النصيحة من قبله، وأن الأخذ بها من عدمه عائد للسلطان: " وإنما منزلةُ التابع من الصاحب منزلةُ العين من القلب؛ فالعينُ تؤدي ما يُبْصَرُ، والقلبُ يُميِّزُ ويُفَكِّرُ. وعندي نصيحة، وأنت أيها الملك فيها على أحد حالين لا ثالث لهما، إما أن تجدها صوابا فتنتفع بها، أو لا تجدها صوابا فلا مضرّة عليَّ عند ذلك فيها إذا كان السلطان لا يضره استماع النصائح؛ لأن الخيار إليه في العمل بها والترك لها، وأنا فيها علي أحد ثلاثة أحوال: إما أن أنتفع بها لديه، أو لا أنتفع ولا أستضرُّ، أو أن أستضرَّ بها، فإن أمَّنتني من استضراري بها من جهته على سائر الوجوه كما أنه آمن من مضرتها على سائر الوجوه كان الخيار إليه في القسمين: إن شاء نفعني وإن شاء لم ينفعني؛ لأني لا أشترط عليه ذلك" [٣].

وهو حين يلقي بالنصح على الملك ينطلق من نظرة أعمق، ورؤية أشمل للعلاقة التي تربط بين الحاكم والمحكوم، فإن النصيحة وإن كانت خدمة لفرد الملك فإن أثرها نافذ إلى من يحكمهم، يقول الغواص: "أيها الملك! إنه وإن كانت المنفعة لصاحب القدرة فإنها عائدة على ذوي الحاجة؛ لأن الله عز وجل جعل السلطان قواما لعالمه، ونظاما لرعيته، يردع به الجاهل عن العاقل ويردُّ به عن الحق الباطل، ويمنع القوي عن الضعيف، ويحيي به السنة وينفِّذ به أحكام الشريعة، فصلاحه صلاح الشأن وفساده فساد النظام" [٤].

---

[١] - الأسد والغواص ص٧٨
[٢] - الأسد والغواص ص٧٨
[٣] - الأسد والغواص ٧٨،٧٩
[٤] - الأسد والغواص٧٩

وهو يؤكد ذلك حين توجه للملك للتخلص مما ألحقه الجاموس بوحش الغابة من الأذى:".. وقد خدعتُ نفسي التي لا تكاد تطاوعني على كثير من الأشياء إلا بضرب من الخديعة على بسطها بحضرتك رجاء لبلوغ محبوبك وإزالة ما أهمَّك؛ فإن في صلاحك صلاح مملكتك وفي صلاح مملكتك صلاح الجملة التي أنا بعضها؛ فإن صلحتُ صلحتْ بصلاحها، وإن فسدت فسدتُ بسببها" (١)

وجاء في الأسد والغواص عدة نصائح تتعلق بالوسائل التي تعين الناصح على أن يحقق ما يبتغيه من نصحه: "اعلم أن أنفق الناس عند الملوك من مزج الجد بالمهازلة، والتحقيق بالمقاربة، فإن أطيب الحلو ما مازجه شيء من الخبز، وكل نافع زاد عن حده فهو ضار لمستعمله" (٢)

ونجد توجيها دوما لمن يرغب في إبداء الرأي بمعية حاشية الملك منها: "إن لكل شيء حدا، فما جاوزه كان سرفا، وما قصر عنه كان عجزا. فلا تبلغ بك النصيحة للملك أن تُعادي له حاشية من أهلة وخاصة قومه،.. (٣). وكقوله:" إذا سأل الملك عن رأي وكنت في جماعة فاحذر التسرع إلى الإجابة، فإن استدبار الرأي أحرى أن يكشف لك عن فصه. (٤)

كما يجب على الناصح إذا استحسن الملك له رأيا، أو رآه جديرا بالعمل به، أن يكثر من ذكر فضله في ذاك الرأي، بما يُثير حفيظة الملك ويحنقه عليه: "وإذا حُمد لك رأي، أو ظهر لك صواب، فلا تكثر من ذكره، إكثار المتبجح، فإن ذلك يثير حمية الملك وغيرته من أصحابه، بحيث ينسى إحسانك معها. واعلم أن الامتنان يحمل على جحْد الإحسان. وينتقل به صاحبه من المحمدة إلى المذمة. ومن رتبة الإحسان إلى الإساءة. (٥)

وفي كليلة ودمنة نجد فكرة النصيحة أيضا حاضرة. سواء أكانت في علاقات شخصيات كليلة ودمنة أو حكاية على ألسنة الحكماء والعلماء والفلاسفة. فقد جاء في كليلة ودمنة على لسان دمنة حين سعى

(١) - الأسد والغواص ص ١٠٩ وهو قد ذكر هذه الفكرة في موضع آخر: يقول الغواص: (قد سمعت ماقلت لكن يجب على الرعية أن يجهدوا أنفسهم في صلاح الملك ومعونته، بما يجدون اليه السبيل من رأى وقدرة، كما يجب على الملك أن يبذل لرعيته ما يصلح حالهم من تدبير وقوت فإن صلاح الملك صلاح مملكته ورعيته، وفي صلاح مملكته صلاح الجملة التى الناصح جزء منها يضره ما يضرها، وينفعه ما ينفعها" الأسد والغواص ص٧٨ .

ويقول الغواص في موضع آخر: وهو يؤكد ذلك بقوله أيضا: "إيها الملك ! إنه وإن كانت المنفعة لصاحب القدرة فإنها عائدة علي ذوي الحاجة، لأن الله عز وجل جعل السلطان قواما لعالمه، ونظاما لرعيته، يردع به الجاهل عن العاقل ويرد به عن الحق الباطل، ويمنع القوي عن الضعيف، ويحبي به السنة وينفِّذ به أحكام الشريعة، فصلاحه صلاح الشأن وفساده فساد النظام".

(٢) - الأسد والغواص ص٦٢.

(٣) - الأسد والغواص ص ٦٣.

(٤) - الأسد والغواص٦٤

(٥) - الأسد والغواص ٦٥

في تحميل الأسد على الثور مدعيا النصح: "فإنه من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان رأيه، كان قد غش نفسه" [١]. وقد جاءت النصيحة التي تقدم بها دمنة للأسد حق يراد من ورائه باطل، فلم يكن ظاهرها مثل باطنها، فقد كانت لغرض ولهوى.

ولذك يحفز مَنْ حول الملك أن يحيطوه بما لديهم من مروءة وعلم ونصيحة؛ لأن الملك قد لا يكون عارفا بكل ما لديهم؛ فذلك مدعاة للاستفادة بما يمتلكون، يقول دمنة للملك: "إن رعية الملك ومَن بحضرته منهم يجب أن يعرّفوه ما عندهم من المروءة والعلم، ويبذلوا له نصيحتهم. فإن الملك لا يعرفهم فلا يضعهم في منازلهم التي هم أهلها ومستحقون لها إلا بذلك" [٢]

وكما يجب على الرعية والخاصة نصح الملك بما لديهم، فإن على المرء أن يضع نصيحته عند من يرجى له أن يعمل بها، أما من يعزف عن النصح ومن لا يستجيب له أو لا يرغب في العمل به، فإنه بذل نصح لمن لا يستحق، يقول الثور مخاطبا دمنة حين حمّله على الأسد، وشعر الثور بأن ما قدمه من نصح للأسد لم يكن له شفيعا لتستقيم الأمور بينهما: "من بذل نصيحته واجتهاده لمن لا يشكر له، فهو كمن بذر بذرة في السباخ، أو أشار على الميت" [٣]

٥-الرأي:

الرأي ثمرة من ثمرات العقل الإنساني، وقدر الرأي من عظم الواقعة التي يؤخذ فيها الرأي، وكذلك كم الأفراد الذين يطبق عليهم الرأي سلبا أو إيجابا. يقول صاحب الأسد والغواص:

- وقد شبهت الحكماء الرأي بالضالة، قد يجده من لا يطلبه، ويطلبه من لا يجده" [٤]
- " قالت الحكماء: شيئان لا يصلح أحدهما إلا بالانفراد والآخر لا يصلح إلا بالاشتراك. فكما أن الملك لا يصلح إلا بالانفراد فإن الرأي لا يصلح إلا بالاشتراك. " [٥]
- قال الغواص : إن الرأي إنما هو نتيجة العقل، والعاقل لا يتكلف ما لا يبلغه، فإنه متى حاول ما فوق طاقته ولو بشيء يسير كان في ذلك اليسير عطبه، وليس اليسير في قدره بيسير إذا في فعله " [٦]

---

[١] - كليلة ودمنة ص ٦٨
[٢] - كليلة ودمنة ص ٥٢
[٣] كليلة ودمنة ص ٧٩
[٤] - الأسد والغواص٧٦
[٥] - الأسد والغواص ص ٧١
[٦] - الأسد والغواص ٧٢

ويذكر صديق الغواص عددا من النصائح التي وجهها صديقه له يتعلق أكثرها بكيفية التعامل مع الملك والنصح له، وكيف تكوْنُ علاقته بحاشية الملك. ومنها أن ينحله حسن التدبير وأن ينسب إلى نفسه الرأي غير الصائب. [١]

وفي كليلة دمنة قرّب الأسد شتربة لما رأى فيه من العقل والحكمة والمعرفة "ثم إن الأسد قرَّب شتربة وأدناه وكرمه وآنس منه رأيا وعقلا، فائتمنه على أسراره، وشاور في أموره "[٢]

وعندما همّ دمنة بتحميل الأسد ضد شتربه يأتي قوله: "واعلم أن من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه مما ينظرون له فيه، لم يحمد مغبة أمره ورأيه، كالمريض الذي يترك ما ينعت له الطبيب ويعمد إلى ما تشتهي نفسه. وحقٌّ على وزير السلطان أن يبالغ في الحِضِّيضَى لـه على ما يزينه، ويكون فيه رشده وكفّ الشين عنه، وخير الأعوان أقلهم مصانعة، وأفضل الأعمال أحلاها عاقبة" [٣] . ويشير عمليا إلى خطورة ضعف الرأي واضطرابه وإنه سبب لهلاك أصحاب الرأي الضعيف يقول: "لم يُهلك ملك البوم إلا بغيه وضعفُ رأيه ورأي وزرائه" [٤] .

ويقول الغراب صاحب الحيلة للملك محاولا نسبة صواب الرأي إلى الملك، على الرغم من أنه صاحب هذا الرأي ولكنه أراد أن (ينحله) للملك – كما كان من ضمن وصايا صديق الغواص له حين هم بالذهاب للملك: " كل ما كان من ذلك فبرأي الملك وسعادة جَده" [٥]

٦-الحيلة:

الحيلة ثمرة من ثمار العقل بما يمتلك من الوعي والمعرفة والإدراك والحدس والتجربة، ونجد إشارات متكررة عن استخدام الحيلة واللجوء إليها دون الحاجة إلى استخدام القوة والبطش، فهي تحقق الغرض لصاحبها من أقصر طريق وبأقل تكلفة في النفس والمال والجهد.

[١] - وقد ورد في الحكاية :"ليكن مما يعرفك به السلطان أن تنحله التدبير ولا ننتحله عليه، وتنتحل عنه التقصير ولا تنحله إياه حتى تجعل محله محل الآمر، ومحلك محل المنفّذ، فإن ظهر من أمره حسن نسبته إلى تدبيره، , وإن ظهر منه عجز أضفته إلى نفسك" ص٦٥

[٢] - كليلة ودمنة ص ٥٨

[٣] - كليلة ودمنة ص ٧١

[٤] - كليلة ودمنة ص١٧٠

[٥] - كليلة ودمنة ص١٧٢

ولأن صاحب كليلة ودمنة يرى العقل مناط الفكر والإبداع والابتكار فإننا نلاحظ ربطا بين العقل والحيلة، بوصفها إحدى تجليات العقل الإنساني حين يخرج من إطار المكرر والمعلوم والشائع الذائع إلى الجديد والمبتدع والمخترع.

وحين عزم دمنة على التخلص من الثور، راجعه في ذلك كليلة قائلا له: "وكيف تطيق الثور وهو أشد منك، وأكرم على الأسد، وأحسن منزلة، وأكثر أصدقاء وأعوانا؟ قال دمنة: لا تنظرنَّ إلى صغري وضعفي، فإن الأمور ليست بالقوة والعِظم. وربَّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء." [١].

وينبه في موضع آخر إلى عدم اللجوء إلى القوة –وإن كان الإنسان يمتلك أدواتها– وإنما الحنكة في اللجوء إلى الحيلة. "فإن ذا العقل يجعل القتال آخر حيلة، ويبدأ بما استطاع من رفق أو تمحّل ولا يعجل وقد قيل: لا تحقرنَّ العدو الضعيف المهين، لا سيما إن كان ذا حيلة" [٢] لأن منطق العقل السديد والتفكير القويم يحتم البعد عن القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ لما فيه من خسارة الأنفس والمال، خاصة أن النفقة من النفوس لا تعوض، والأكيس للمرء اللجوء للحيلة؛ فصاحبها أقدر على عدوه حتى وإن كان أقوى منه.

وجاء في كليلة ودمنة بعد إيراد حكاية السرطان والعلجوم: "إنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الاحتيال ربما أجزى ما لا تُجزي القوة". [٣] وصاحب الحيلة يجب أن يحسن تقديرها وإحكامها إحكاما شديدا، وإلا كان فيها ضره وربما هلاكه، فنجد تحذيرا من فشل الحيلة وما قد يعود على صاحبها من الضرر البالغ، بل قد يكون فيها حتفه: وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لتعلم أن بعض الحيل مدمِّر لصاحبه، مُهلك له" [٤]

---

[١] - كليلة ودمنة ص٦٢، ويشير كليلة إلى قوته النابعة من عدم مبالاة الثور به والنظر إليه على أن له ضعيف لا يؤبه له:" قال دمنة إن شتربة على ما ذكرت، ولكنه بي مُغترٌّ، فأنا خليق أن أصرعه" كليلة ودمنةص٦٦

[٢] - كليلة ودمنة ص٨٣،٨٤، ونجد هذه الفكرة أيضا في كتاب أخلاق الملوك تحت عنوان: مكايدة الملوك في الحروب "ومن أخلاق الملوك المكايدة في حروبها. ولذلك كان يقال: ينبغي للملك السعيدة أن يجعل المحاربة آخر حيلة، فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال، والنفقة في الحروب إنما هي من الأنفس، فإن كان للحيل محمود عاقبة، فذلك بسعادة الملك، إذ ربح ماله وحقن دماء جيوشه، وإن أعيت الحيل والمكايد، كانت المحاربة وراء ذلك" أخلاق الملوك، الجاحظ، تحقيق وتقديم نسيم الهواري، دار المعارف، ٢٠١٩م ص١٢٢، ١٢٣.

[٣] - كليلة ودمنة ص٦٦

[٤] - كليلة ودمنة ص ٦٥

وقد ورد في قصة السمكات الثلاث: الكيِّسة والأكيس منها والعاجزة، "وقلما تنجح حيلة المرهوق، ولكن العالِم لا يقنط على كل حال، ولا يدع الأخذ بالرأي" [١]

ونجد حكايات متعددة لعبت فيها الحيلة دورا كبيرا في تحقيق الهدف منها، دون اللجوء للقوة مثل قصة القرد والغيلم، حيث استطاع القرد بذكائه وحسن حيلته النجاة من التهلكة، وقصة البوم والغربان، حيث استخدم أحد الغربان الحيلة في القضاء على البوم دون اللجوء للقتال "وأنا أرجو أن أقدر من الحيل على بعض ما فيه الفرج، فإنه رُبَّ قوم احتالوا برأيهم في الأمر الجسيم حتي ظفروا منه بحاجتهم التي لم يكونوا قدروا عليها بالمكابرة" [٢] . وقال ملك الغربان للغراب صاحب الحيلة مع البوم :" وجدت صرعة المكر أشد استئصالا للعدو من صرعة المكابرة" [٣]

وحين تكون الحيلة فيما لا يمكن تغييره تصبح ضربا من العبث، فقد جاء على لسان وزير ملك الجرذان حين أرادوا إزالة ما توارثوه من أسلافهم من الفزع من السنانير: "إن عَلِمَ الملك أن له حيلة يبلغ بها مراده من هذا الأمر، ويتحقق ذلك تحققا صحيحا، وإلا فما سبيله أن يحرص عليه ولا يدبّر بفكره فيه؛ لأن ما يُتوارث من الآباء والأسلاف في الأصلاب والجنس ويتأدّى من الآباء إلى الأولاد بالطبع، ولا يقدر مَلك من الملائكة، دع الناس، على تغييره" [٤]

ويربط الغواص بين الحيلة والمعرفة لكون الحيلة ثمرة من ثمار المعرفة:" الحيلة هي فضل المعرفة، وإنما يقبح استعمالها فيما يحظره العقل والدين، وأما فيما يؤدى إلى المنفعة فإنها لا تقبح." [٥]

وحين يتمكن الغواص من القضاء على الجاموس ضخم الجثة يعجب الأسد من قدرته على هذا، ويذكر له أن ذاك إنما هو فضل المعرفة. "ثم إن الأسد قال للغواص: لقد أحسنتَ الحيلة، وبلغتَ ما لا يُبلغ بالقوة، فعرفني بأي شيء أدركت ما أدركت من المعرفة؟ قال: بانصراف نفسى بأجمعها إلى المعرفة، وانقطاعها إليها، ولذلك خص أضعف السباع بالحيلة؛ لأن النفس إذا أيست من القوة انقطعت إلى الحيلة،

---

[١] - كليلة ودمنة ص٧٠ .

[٢][٢] - كليلة ودمنة ص١٥٩ ويشبه ذلك ما ورد في باب الحمامة المطوقة، فقد جاء في خاتمة الباب: "ثم قال الفيلسوف للملك: فإذا بلغت حيلة أضعف الدواب والطير وأهونها في معاونة بعضهن بعضا، ومواتاتِهن، وجُمعهن فيما بينهن، وصبرهن على ما خلّص به بعضهن بعضا من أعظم البلاء وأضعفه وأهوله وأضعفه، فكيف بالناس لو فعلوا ذلك وترافدوا فيه" كليلة ودمنة ص١٤٦

[٣] - كليلة ودمنة ص١٧٢.

[٤] - كليلة ودمنة ص٢١٩، ويعلل ذلك بقوله:" ثم يقول الوزير: "فإن من قاوم ما يُتوارث في الجنس فكأنه يريد أن يعارض ما أُتفق عليه. وربما نتج من ذلك آفة عظيمة أعظم من الأولى وآل الأمر فيه إلى أحوال من العطب لا تتلافى".ص٢١٩

[٥] - الأسد والغواص ٩٨

وإذا انقطعت النفس إلى شيء توفرت عليه قواها، وما توفرت قوى النفس على شيء إلا برزت فيه، ولهذا صارت النساء أحيل من الرجال لضعفهن".[١]

واللجوء للحيلة كان سبيل مَنْ دبروا المكيدة للغواص من بطانة الملك؛ فهم لن يستطيعوا أن يثنوا الغواص عن دوره مع الملك، كما أنهم عاجزون عن أن يشيروا على الملك بإبعاده خاصة أنه محل ثقته، وهو من ألحَّ عليه في البقاء، بل وارتضى بالصيغة التي اقترحها لشكل العلاقة بينهما؛ فضلا عن عجزهم عن استخدام القوة في الأمر؛ ولذا كان اللجوء للحيلة هو خيارهم الأمثل. "قال آخر:... فقد يبلغ الضعيف بالحيلة ما لا يبلغ القوي بالقوة، فإن الأسد قد يحفر له الصبى الدببة فيوقعه فيها، وينصب له الفخ والوهق فيصيده بهما. وإنما فضل العقل في دقة الحيلة" [٢] .

ويلح الغواص على ضرورة توظيف الحيلة وعدم الركون إلى شعور الامتلاء بالقوة، ما دامت الحيلة تفي بالغرض: "قال أيها الملك! إن الحكماء قد قالوا: أضرُّ ما على الإنسان أربعة أشياء: ...، والتهاون في الحيلة ثقة بالقوة، وترك الحزم اتكالا على السعادة.. وقيل الحيلة عدوة الشدة، والصبر صديق الظفر." [٣]

والحيلة يُحتاج فيها إلى التجديد وعدم الركون لتكرارها، ذلك أن "الحيلة إذا خرجت إلى العادة ذهبت أكثر قوتها" [٤] .

ولكي تنجح الحيلة فقد يحتاج الأمر إلى مراعاة ما يحيط بها من ظروف؛ لهذا ينبغي أن يظل العقل حاضرا، وسرعة البديهة قائمة؛ لتلافي أية مستجدات سلبية خلال تنفيذ الحيلة. يقول الغواص: "إن المكيدة المرتبة المهيأة، ربما ورد عليها من الاتفاقات الخارجة عن التقدير بما يُبطلها. وأكيس الأكياس من كان تلطفه حاضرا معه، يفعل بحسب ما يكون في وقته" [٥] . وبعد أن يورد الغواص للأسد مثالا على حسن التصرف إذا طرأ طارئ على الحيلة، يقول: إنما ذكرت لك هذا المثال لتعلم أن الحيلة يُحتاج الى أن تكون بحسب الوقت الراهن وعلى قدر الحال الحاضر، وقد تُحدِث المشاهدة حالا لم تكن في الرؤية". [٦]

---

[١] الأسد والغواص ص١٠٨
[٢] - الأسد والغواص ١٣٦
[٣] - الأسد والغواص ص٨٨
[٤] - الأسد والغواص٨٩
[٥] - الأسد والغواص ص٩٠
[٦] - الأسد والغواص٩٠

وعلى صاحب الحيلة إن يحسن الإعداد لها كي تنجح، ويفوز بمرغوبه، فإنها إن لم تفلح فربما كان فيها تلفه وهلاكه، فقد جاء على لسان أحد أعداء الغواص: "قال واحد منهم: أما إذا عزمتم فتثبتوا في الحيلة، فربما كان هلاك المرء في حيلته" [١]. ثم يقول أحدهم بعد أن قص حكاية باءت الحيلة فيها بالفشل: "لتعلموا أنه رُبّ امرئ أهلكته حيلته". [٢]

وحين همَّ الملك بقتال النمر الذي بدأ يستوحش وأحس منه الأسد شيئا من الخروج على الطاعة، وتنكبا عن الالتزام بأمر الملك، فإن الغواص ينصحه باستخدام الحيلة معه، بأن يُظهر تقريبه له وحسن رأيه فيه ثم يباغته فيقتله. "وكانت الملوك إذا أرادوا كيد أحد اجتهدوا في أن يمحوا صورة الحذر من نفسه، وزادوا في أنسه وإكرامه ليسترسل".[٣].

وقد لفت الغواص نظر الملك إلى ضرورة إخفاء المقصد حين همَّ بالانفصال عنه والانقطاع للعبادة والنسك فقال من ضمن ما أوصى له الملك: "... وقد كان الملوك إذا أرادوا كيد أحد اجتهدوا أن يصرفوا فكره عما يريدون من كيده، وظاهروه بما يمحو صورة الحذر من نفسه، ليطرح الاحتراز فتبدو مقاتله. فإذا أعجزهم صرف نفسه عن ذلك احتالوا أن يكيدوه كيدا ظاهرا اشتغل به خاطره، ويقدِّر أن ذلك غاية ويكون ذلك مشغلة له، وصرفا لخاطره عما يروّنه ويوهمونه من مقارنته في الرأي فيقدر أنه غاية ما رُمي به. فصلاح الملك في الأمرين مبني على الاحتراز".[٤] وإخفاء المقصد هو ما فعله أعداء الغواص من خواص الملك ليُلبسوا الأمر عليه، "يقول أحدهم: فقد يجب على الحازم أن يظهر من أمره ضد ما في نفسه؛ ليكون أخفى لقصده". ويقول بعض حاشية الملك: .. فكل من أراد حيلة لو لم يظهر خلاف ما في نفسه لعُلم مقصده" [٥].

---

[١] - الأسد والغواص١٢٤

[٢] - لأسد والغواص ص١٢٤.

[٣] - الأسد والغواص ١٢٥، يقول الغواص داعيا الملك إلى إعمال الحيلة "" فقال له الغواص: إنه قد استوحش وان صرفته حملته على المجاهرة، وخلع اليد من الطاعة، وكانت الملوك إذا أرادوا كيد أحد اجتهدوا في أن يمحوا صورة الحذر من نفسه، وزادوا في أنسه واكرامه ليسترسل. وقد قال الأولون: إن صرعة المسترسل لا تستقال. وأنت على العدو القوي إذا كان مسترسلا أقدر منك على العدو الضعيف إذا كان حذرا، ولكنى احتال لك في ذلك" ص١٢٥

[٤] - لأسد والغواص ١٩٦

[٥] - الأسد والغواص١٣٦.

٧-التحذير من صحبة السلطان

تتسم علاقة المثقف بالسلطان بشيء من التوجس والريبة، " وتعد إشكالية العلاقة بين طرفي المعادلة: الحكمة والسلطان، أو المثقف والسلطان، من أبرز الإشكاليات التي تطرحها متون الآداب السلطانية، لما يتولد عنها من جدليات صغرى أبرزها جدلية العمل مع السلطان، تعد الأكثر تداولا في المصنفات السلطانية، بين مؤيد ومعارض". (١)

ونجد في كلتا الحكايتين عزوفا وإعراضا عن التقرب إلى السلطة أو المشاركة فيها من قبل المثقف، وهو عزوف قد يبدو لاختلاف المجالين وتباينهما، ولعلها رغبة العالِم في المزيد من العلم، والسلطةُ له مشغلة أي مشغلة، أو خوفا من المخاطر المُحيقة من جراء الاقتراب من السلطة وأعوانها، فهم لا يكفون عن مهاجمة أي وافد ينال حظوة لدى السلطان، أو يحاول اختراق الدائرة التي أحكموها حول سلطانهم، ولا يريدون لأحد أن يشاركهم فيها، وأي محاولة باتجاه التقرب من السلطان من خارج دائرتهم لا تنجح. ولذلك جاءت نصيحة صديق الغواص الذي استشاره في الذهاب للملك لدرء خطر الجاموس "احفظ السلطان بالحذر" (٢) ويقول له أيضا: "يقول اللوام لصديقه الغواص: "احذر صحبة السلطان فإن إقباله تعب، وإعراضه مذلة" (٣).

وقد حاول الغواص النأي عن السلطة بعد أن أدى مهمته بالتخلص من الجاموس، وأراد الانصراف بعدها بثلاثة أيام لكن الملك ألح عليه في البقاء بجانبه مشاركا له في السلطة، ولكنه رفض العرض معللا ذلك بقوله: "فإن ساعة من ساعات السلطان تشيب القلب والكبد. وإنما يحتمل المشقة من لا يُقنعه إلا الكثير فيحتمل في بلوغ غرضه عظيم المشقة. "وأنا فقليل في خفضٍ ودعةٍ أحبُّ إليَّ من كثير في نصب وخوف وليست اللذة بحسب الكثرة وإنما بحسب الحاجة". (٤)

ويقول صديق الغواص مبينا أن المخاطر محيقة بمن يقترب من السلطان وحاشيته، فلا العفاف يصونه من غوائلهم، ولا البسط ينجيه من مكايدهم: "وقد قالت الحكماء: ما أقل طمع صاحب السلطان في السلامة! وذلك أنه إن عفّ جنى عليه العفاف عداوة الخاصة، وإن بسط يده جنى عليه البَسْط ألسنة

(١) - د. وضحا محمد عواد المحارب، جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني بين الاستبداد والاغتراب، مجلة جامعة الناصر، العدد الخامس، المجلد الأول، يناير، يونيو٢٠١٥م. ص ١٧

(٢) - الأسد والغواص٦٤

(٣) - الأسد والغواص ص ٥٥

(٤) - الأسد والغواص ١١٣

المتنصحين. وما أشبه صاحب السلطان بسهم الرامي، أشد ما يكون له تقريبا، أشد ما يكون له إبعادا" [١]. ويقول صديق الغواص الآخر(اللوام): "خدمةُ السلطان ما أطيبَها لولا ما فيها من التعرض للتلف". [٢]

والقرب من السلطان لا يعنى أن أصحابه صاروا في مأمن بل إن الخطر يحيق بهم في أي لحظة، وحين يستشعر الملك منهم ما يجعل خاطره يتغير عليهم تكون القاصمة لهم، "وقد قال بعض الحكماء: حق على صاحب السلطان ألا يستحدث منزلة إلا أحدث له ذلك خيفة وتوقيفا. وليعلم أن على قدر العلو يكون الهوي، وأن على قدر موضع النعم يكون موقع زوالها، وإن اختلاف أصحاب الملك في ذلك بمنزلة قوم ترقوا مصْعدا صعبا، فلما تَرقَّوا فيه زلت أقدامهم عنده إلى القرار فكان أبعدُهم مرقىً أقربَهم إلى التلف، وأدناهم الى القرار أحراهم بالنجاة"[٣].

وفي كليلة ودمنة نجد الحذر دوما من صحبة السلطان في عدد من المواضع، ولعل أبرزها حين همَّ الفيلسوف بيدبا بالورود على دبشليم الظالم لردعه عن ظلمه، ورجاه تلامذته بالبعد عن هذه الفكرة لما فيها من خطر استشعروا أنه مؤكد بدليل هروبهم من بلدتهم بمجرد انطلاق بيدبا للملك، وحين هم بهم بعد مجيء بيدبا وغضبه عليه بادئ الأمر لم يجدهم. [٤]

كما حاول كليلة جاهدا أن يقنع دمنة بأن المنزلة التي هُمْ عليها منزلة مَرْضِيَّة، وأن على كل إنسان أن يقنع بالمنزلة التي هو عليها ويرضى [٥].

ويقول كليلة بعد أن رأى تصميم دمنة على اللحاق بخدمة السلطان، محذرا إياه بشدة من صحبة السلطان التي يرى أن العاقل الأريب ينأى بنفسه عنها، بل يرى أن الجرأة على اللحاق بصحبة السلطان من سمات (الأهوج)، "قال كليلة: أما إذا كان هذا من رأيك، فإني أحذرك صحبة السلطان، فإن في صحبة السلطان خطرا عظيما. وقد قالت العلماء: إن أمورا ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا الأهوج، ولا يَسْلم منها إلا قليلٌ، وهي: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة. [٦] وإنما شَبَّه

(١) - الأسد والغواص ١٥٠،١٥١

(٢) - الأسد والغواص١٥٩

(٣) - الأسد والغواص ١٣١،١٣٢.

(٤) - كليلة ودمنة، نسخة المرصفي ص ص٩٠

(٥) - جاء على لسان كليلة لدمنة -حين رغب في الذهاب للملك- محاولا الخروج من منزلته وطبقته إلى ما لا يشاكله:" قال كليلة: ... فراجعْ عقلك واعلم أن لكل إنسان منزلة وقدرا، فإن كان في في منزلته التي هو فيها مكتفيا متماسك الحال في أهل طبقته، كان حقيقا أن يقنع ويرضى. وليس لنا من المنزلة ما نسخط له حالنا التي نحن عليها" كليلة ودمنة ص٤٨ . جديدة.

(٦) - ورد في النمر والثعلب لسهل بن هارون قولا شبيها بذلك على لسان الذئب للثعلب"وقد قيل: خاطر من لجج في البحر، وأشد منه مخاطرة من صحب السلطان"ص ١٦٤، وكذلك قوله" وقد كان يقال: أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إى بمعونة ارتفاع همة وعظم

العلماء السلطان بالجبل الوعْر، الذي فيه الثمار الطيبة، وهو معدِن السباع المخوفة، فالارتقاء إليه شديد، والمُقام فيه أشد وأهول" [١]

وتتردد هذه التحذيرات في أكثر من موضع من كليلة ودمنة مثل: "من بلغ في الدنيا جسيما فلم يَبطَر... أو صاحب السلطان فدام له منه الإحسان" [٢]

- "قيل: غرّر من لجّ في البحر، وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان، فإنه خليقٌ، وإن هو لزمهم بالوفاء والاستقامة والمودة والنصحية، أن يعْثُر فلا ينتعش، وإن لم يكن هذا فلعل ما أُعطيته من الفضل جُعل فيه هلاكي" [٣]
- "وجاء على لسان الثور حين استشعر هجوم الاسد عليه:" ما صاحب السلطان- فيما يُتخوّف من بوادره عندما يرقى أهل البغي إليه- إلا كمجاور الحية في بيته، والأسد في عرينه، والسابح في الماء الذي فيه التماسيح، لا يدري متي يهيج به بعضهن" [٤]
- وجاء في كليلة ودمنة في (حكاية الأسد وابن آوى) على لسان الأخير حين رفض في مبتدأ الأمر العمل للأسد (وأنا لعمل السلطان كاره...) معللا ذلك بقوله:" إنما يستطيع العمل وصحبة السلطان رجلان، لست بواحد منهما: إما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره، ويسلم بمصانعته، وإما رجل مهين مغفل لا يحسده أحد" [٥]
- وفي حكاية "باب الملك والطائر قُبَّرة" جاء على لسان الطائر حين وجد ابنه مقتولا على يد ابن الملك: "قُبحا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء! وويل لمن ابتلي بصحبتهم، فإنهم لا حميم لهم ولا حريم، ولا يحبون أحدا، ولا يكرم عليهم، إلا أن يطعموا عنده في غَناء فيقربوه عند ذلك ويكرموه. فإذا هم قضوا

خطر: صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو" ص١٦٤. كتاب النمر والثعلب، تحقيق وتقديم عبد القادر المهيري، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٣.

[١] - كليلة ودمنة ص ٥٠ جديد،

[٢] - كليلة ودمنة ص ٧٤،٧٥ عزام، وهذا التحذير من صحبة السلطان نجده بوضوع كذلك في الأدب الكبير، حيث يضع ابن المقفع مجموعة من النصائح تحت عنوان: "ماذا على من ابتلي بصحبة السلطان وصحبة الوالي" ومنها " لا تقدر الأمر بينك وبينه على ما كنت تعرف من أخلاقه، فإن الأخلاق مستحيلة مع الملك" ابن المقفع، الأدب الكبير، محمد حسن المرصفي، مؤسسة الهنداوي للطباعة والنشر، ٢٠١٤م ص ٣٥

[٣] - كليلة ودمنة ص ٧٦

[٤] كليلة ودمنة ص٨٧

[٥] - كليلة ودمنة ص٢٤٦

منه حاجتهم فلا وُدَّ ولا حفاظ، ولا الإحسان يجزون به، ولا الذنب يعفون عنه. إنما أمرهم الفخر والرياء والسمعة، الذين كل عظيم من الذنوب يركبونه، وهو عندهم صغير حقير هين" (١).

وتجربة الطائر قبرة مع الملك في (باب الملك والطائر قبرة) لا تختلف كثيرا عمن جاوروا الملوك، فقد ناله الأذى في فرخه، حين قتله ابن الملك –الذي كان يعدُّ الفرخ أخا له– في لحظة غضب، ففقأ قبرة عيني ابن الملك انتقاما لابنه، وفرّ من جوار الملك وحاول الملك مرارا أن يستدرجه للعودة مرة أخرى ليتشفى مما أصاب ولده، ولكن قبرة كان واعيا للأمر غاية الوعي، فكال للملك من الاتهامات ما رآه جديرا له، وما ذكره عن تجربة ومشاركة وليس مشاهدة أو سماع. ولعل كون الواقعة مع ابن الملك وابن الطائر إشارة إلى أن جور السلطان كامن في الأبناء، ككمون النار تحت الرماد، ما إن ينكشف عنها بعض التراب حتي تستعر وتكوي من حولها.

٨– الحذر من االبطانة:

السلطة لا تصلح أمورها إلا بالانفراد، فلا يمكن أن يكون لها أكثر من رأس، ولكن لأن لكل سلطان أشغاله الكثيرة التي لا يستطيع أن يقوم بها وحده، أو يصرفها أو يفهم فيها، فيوكلها إلى غيره ممن حوله من بطانته ممن يثق بهم، وتبدو هذه البطانة المتصرفة فيما يُوكَّل إليها وفق إرادته، فهي عينه التي يرى بها، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، وهي من تنير له ما شاءت من عقله: "قال صديق الغواص: إن الحكماء قد قالوا إن الملك كالبحر وأصحابه كالرياح تصرِّفه كيف تصرفت، فإن هاجتْ هاج، وإن سكنتْ سكن." (٢)

وقد ورد في موضع آخر في الأسد والغواص ما يذكرنا بابن خلدون حين كان يصوغ قوانين المجتمع الإنساني، ففساد البطانة لا شك سيفضى إلى انحلال الدولة وانهيارها: "وقد قالت الحكماء: ما يبلغ أحد من فساد الدول ما تبلغ السعاة، فإنهم إن سعوا الى الملك بأصحابه أفسدوه عليهم، وإذا أفسدوه عليهم فسدوا، وبفسادهم فساد الملك، وقال آخر: إذا أعيتك الحيل فاختلْ له بطانته، فما هلك قوم قطُّ، كهلاكهم من بطانتهم" (٣) .

(١) ـ كليلة ودمنة ص٢٣٨
(٢) ـ الأسد والغواص ١٥٧
(٣) الأسد والغواص ص١١٨

وجاء في كليلة ودمنة، ما يشير إلى خطورة الدور المنوط بالبطانة التي حول الملك، " إنما السلطان بأصحابه وأعوانه كالبحر بأمواجه" [١] وقد قيل: إن السلطان إذا كان صالحا، ووزراؤه غير صالحين، قلَّ خيره على الناس، وامتنع منهم فلم يجترِ عليه أحد، ولم يدنُ منه، كالماء الصافي الطيب الذي فيه التماسيح فلا يستطيع الرجل دخوله وإن كان سابحا وإليه محتاجا. وإنما حلية الملوك وزينتهم قراياينهم أن يكثروا ويصلحوا" [٢]

وجاء في كليلة ودمنة أن مما يُضعف ملك السلطان أو يذهب به، عدم وجود البطانة الصالحة. قال دمنة: إنَّ السلطان إنما يؤتى من قِبَل سِتٍّ خلال: الحِرمان، والفتنة، والهوى، والفظاظة، والزمان، والخُرق. فأمَّا الحرمان فهو أن يَفقِد الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، أو يُبعد بعض من هو كذلك" [٣] وهو المعنى ذاته الذي ورد فيما بعد في (باب الأسد وابن آوى) على لسان أم الملك حين كَادَ أصحابه لابن آوى :"فإن أعظم الأشياء ضررا على الناس عامة، وعلى الولاة خاصة أمران: أن يُحرَموا صالح الأعوان والوزراء والإخوان، وأن يكون وزراؤهم وإخوانهم غير ذوي مروءة ولا غناء" [٤] ذلك أن فساد البطانة يُفضي حتما إلى انهيار المُلك، ويبدو ذلك في كليلة ودمنة كأنه سُنة من سنن الله في الاجتماع، من فقد البطانة الصالحة فلا يؤمِّل بقاء ملكه. "وكان يقال: لا يطمعنّ ذو الكبر والصلف في الثناء... ولا الملك المتهاونِ الضعيفُ الوزراء في بقاء ملكه" [٥]

وللبطانة دور عظيم –إن كانوا صالحين– في استقامة شأن الملك – حتى إن كان جاهلا– فإن هذا يهيئ إلى أن تستقيم له الأمور" فإن الملك وإن كان جاهلا، إذا كان يُقدَر على الدنوِّ منه، وكانت قراياينه ووزراؤه صالحين، نفذ أمره ورأيه واستقام له ملكه" [٦]

في "باب الأسد وابن آوى" ينبه الفيلسوف –في إجابته عن سؤال للملك– إلى ضروة اختيار من يحتاجهم لأعماله الكثيرة بعناية، واختيار الشخص المناسب لما يلائمه من عمل، واختبارهم في ذلك، كما أنه لا بد من تفقد أعمالهم ومحاسبتهم على ما يكون منهم، بحيث يستزيد المحسن ويعاقب المهمل ويكف

(١) - كليلة ودمنة ص٩٠
(٢) - كليلة ودمنة ص٩٠
(٣) - كليلة ودمنة ص ٦٢
(٤) - كليلة ودمنة ص٢٥٤
(٥) - كليلة ودمنة ص١٧٠
(٦) - كليلة ودمنة ص١٥٣

المسيء :"وأعمال الملك كثيرة، و من يحتاج إليه من العمل والأعوان كثير، ومن يجمع منهم الذي ذكرت من النصيحة وأصالة الرأي والعفاف قليل. وإنما السبب في الوجه الذي يتم به يستقيم العمل أن يكون الملك عالما بمودة من يريد الاستعانة به، وما عند كل رجل منهم من الرأي والغناء وما فيه من العيوب. فإذا استقر ذلك عنده من عِلمه أو علم غيره، وعَلِم ما يستقيم به وجَّه لكل عمل مَن قد عرف أن عنده من الأمانة والنجدة والرأي ما يستقل بذلك العمل، وأن الذي فيه من العيب لا يضر بذلك العمل. ويتحفظ من أن يوجه أحدا في وجه لا يحتاج فيه إلى مروءة إن كانت عنده، ولا تؤمن عيوبه وعاقبه ما يُكره منه. ثم على الملك بعد ذلك التفقد تعاهُد عماله والتفقد لأمورهم حتي لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء. ثم عليهم بعد ذلك ألا يتركوا محسنا بغير جزاء ولا يقرُّوا مسيئا ولا عاجز على العجز والإساءة؛ فإنهم أن ضيعوا ذلك وتهاونوا به تهاون المحسن، واجترأ المسيئ، ففسد الأمر وضاع العمل"[١].

٩-حاجة الملوك إلى فئات مختلفة من البشر والطبع والتكلف فيهم:

برز في الأسد والغواص الإشارة الى حاجة الملوك لفئات مختلفة من البشر، لتعدد حاجاتهم وتنوعها، ومن ثم فالأمر لا يتعلق دوما بالعقل فقط في اصطفاء المقربين منهم. وقد جاء في الأسد والغواص: "ولا تقدر أن الملوك يحتاجون الى أهل الكيس والفطنة فربما كان البغل والحمار وهما من أبلد الحيوان من مراكب الملوك مكرمين عندهم ... لأنه ليس أمر العالم يجر على الكيس والفطنة ولا على الذكاء والمعرفة، ولكل مقام مقال ولكل شيء مكان. وإن اختلاف مقادير الناس عند الملوك كاختلاف مقادير الأطعمة عند الناس، ... وهذا مثل من يريد أن يقتصر الملوك عليه من أهل الفضل والمعرفة والعلم والحكمة ". [٢]

---

[١] - كليلة ودمنة ص٢٤٦ وفكرة الاحتياج إلى الأعوان وردت في رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك في الساسية وتدبير المملكة، :"ولأن كثرة الرؤساء تفسد السياسة وتوقع التشتت، احتاجت المدينة أو المدن الكثيرة، أو البلد أو البلدان الكثير، أو أكبر العمارة إلى أن يكون رئيسها واحدا. كما تهيأ لك، أيها الملك، وأن يكون سائر من ينصب لتمام التدبير والسياسة والحفظ أعوانا له سامعين مطيعين منفذين لما يصدر عن أمره، حتى يكونوا له كالأعضاء يستعملهم كيف أحب، ويكونوا كالخلص لجميع عمله، بحضورهم وإنفاذهم لأمره ونهيه، يتناول بهم الأمر البعيد كتناوله له بيده الشيء القريب، ويدرك بهم ما نأى عنه كإدراكه برجليه ما دنا منه. ". تحقيق محمد سليم سالم، ودراسة د حسام أحمد عبد الظاهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التراث الحضاري، (١١) الطبعة الثانية، ٢٠١٨م، ص٣٥ .

- ويقول في موضع آخر عما يجب عليه من اختبار أخلاق من يكلفهم بعمل " وأن يكون خبيرا بأخلاق الناس، كثير التفتيش عن مذاهبهم، ليختار كل واحد لما يصلح له، فيجعل الشجاع النجد مقاتلا ومحاربا، والصقة الامين خازنا، والعالم السديد قاضيا وحاكما، والمحنذ المجرب الصحيح الرأي مستشارا" ص٤٢

[٢] - الأسد والغواص ص٧٤

ومما ورد في الأسد والغواص أيضا: "وقال آخر: لا يفتنك تقريب الملك الأشرار، فإن ذلك يكون عند ضرورته اليهم، كما يضطر الى الحجَّام والى الكسَّاح عند بيع الدم وفيض الكنيف، ثم ينبذ من قربه منهم بعد ارتفاع الحاجة اليه حتى يعود إلى مجلسه وصاحب الفضيلة قريب من قلبه في وقت الحاجة إليه والاستغناء عنه. والمنازل عند الملوك لا تُنال بالمسألة بل بالكفايـة"[١]

وقد وردت فكرة تفاوت حاجة الملوك لمختلف فئات البشر في كليلة ودمنة، وقد برز وعي دمنة بهذا الأمر حين لازمَ باب الملك، يقول: "لم أزلْ بباب الملك، رجاء أن يحضر أمر أُعين الملك فيه برأيي ونفسي، فإن باب الملك يكثر فيه الأمور التي ربما أُحتيج فيها إلى من لا نباهة وربما يكون صغير المنزلة فيكون عنده منفعة بقدره، فإن العود المطروح في الأرض ربما انتفع به الإنسان في حك أذنه. فالحيوان العالم بالضرر والنفع حريّ أن يكون ذلك عنده وينتفع به" [٢]

ورد في كتاب الأسد والغواص ما يشير إلى ضرورة أن يكون العمل الذي يكلف به إنسان مما يشغف به الإنسان ويميل إليه حتي يؤديه على الوجه الأكمل، أما من يُكره على عمل فإنه يؤديه لكنه سرعان ما يضعف أداؤه ويبهت. وحين يرغب الملك في أن يستعمله بعد ما ظهر له من نصحه وفعله وحسن تدبيره يرفض قائلا " إن نفسى ليست محبة للرياسة ولا مشغوفة بمعاناة الولاية". ومع إلحاح الملك في توليته عمله حتى لو أكرهه على ذلك يقول له الغواص: أيها الملك! إن الرهبة شيء يرد على النفس من خارج، والمحابة بالطبع صفة في النفس، وإذا كانت الصفة في النفس بقيت ببقائها، وإذا كانت من خارج فما أقل لبثها!، مع أن الفَرَق ربما أعمى الخاطر وبلَّده، كما أنه ربما أحدَّه وشحذه". [٣] وحين يلمح الملك بأنه قد يُكرهه على العمل، فيذكُرُ الغواص بأن ثمة فرقا كبيرا بين عمل يؤديه صاحبه عن محبة وآخر يؤديه صاحبه وهو مُكره عليه؛ "لأن الذى يفعل بطبعه لا يثقل عليه ولا يحس بأذى فيه، والمتكلف يجاهد نفسه، ويستنكره طبعه عند الأسباب القوية مع الدواعي الوكيدة، ثم يكون أسرع الاشياء رجوعا. والمطبوع في الشيء يفعله لأيسر سبب ومتكلف الأمر يتركه لأيسر سبب لا يصرفه عنه الأذى فضلا عن أن يطلب عليه الأجرة". [٤]

---

[١] - الأسد والغواص ص ١٣١

[٢] - كليلة ودمنة ص٥١

[٣] - الأسد والغواص ص٩

[٤] - الأسد والغواص ص١٠٩، في ظني أن العبارة التي تحتها خط إنما هي تخص من يعمل العمل وهو محب له ليس المُكره عليه. ويبدو أنها اضطراب عند الطباعة ولعل الأمر فات المحقق، فلم يلتفت إليه.

والغواص يؤكد ذلك في موضع آخر، "قال له الغواص: أيها الملك إن اللطف الذى رأيت منى في العلم دون العمل، ... ولست أقدر على العمل إلا ريثما أتكلَّفه والتكلف قليل اللبث سريع الزوال . وقد قال بعض الحكماء: أقوى ما يكون الطبع في أواخره، وأقوى ما يكون التكلف في أوائله."[١]

٥ – وتشابه الأفكار والتشكل العام لبناء الحكايتين [٢]

ورد في كلام العرب أنه قد يتشابه العاقلان ولا يتشابه الأحمقان؛ لأن العقل يجري وفق منطق أما الحمق فلا منطق له. وهذا يعني أن التشابه في الأفكار أمر وارد مع تشابه العقول في الفكر أو المشرب أو أن محط الاهتمام قيم إنسانية عليا تتخطي الزمان والمكان. وقد تعددت بعض الأفكار التي يمكن أن نلمس فيها التشابه أو التقارب بين كتابي كليلة ودمنة والأسد والغواص.

أ- ذكر عناصر الشخصيات الرئيسة في مفتتح بالحكاية

تأتي بداية كتاب الحكاية كليلة ودمنة متشابهة إلى حد بعيد، حيث تشير إلى العنصرين البارزين في الحكاية، وأحدهما الملك والآخر الناصح، وهو من نفس جنس المنصوح (الجنس الحيواني): جاء في كليلة ودمنة: "وكان بقربة أسد يقال له بنكلة، كان ملك تلك الناحية، ومعه سباع كثيرة، وبنات ابن آوى والثعالب وغير ذلك. وكان مزهوا متكبرا منفردا مكتفيا برأيه" [٣]

وجاء في الأسد والغواص :"ذكروا أن أسداً كان ملكاً للوحوش، فى بعض المواضع، وكان حسن الطريقة فى مملكته، محموداً فى رعيته، قد ساسهم بأمرين جمع الحزم فيهما: شدة فى غير عنف، ولين من غير ضعف، قد جعل عطاءه للغناء لا للهوى ..." [٤] .

ويمكن ملاحظة عدد من التشابهات بين الفقرتين في مبتدأ الكتابين أبرزها:الإشارة إلى وجود أسد (ملك)، وذكر الفئات التي تحيط بالملك، ووصف الملك بعدة صفات (تبدو سلبية في كليلة ودمنة وإيجابية في الأسد والغواص).

---

[١] - الأسد والغواص ص١١١

[٢] - هذه الفكرة ترددت في وضعها هنا أو أن تكون ضمن الفكرة الخاصة بالبنية ولكني آثرت أن تكون هنا لأنها تتعامل مع أفكار جزئية ثم عمدت إلى أن تكون متدرجة متشابهة مع سير السرد في كلا الكتابين، وبهذا يؤدي هذا الجزء وظيفتين الأولى خاصة بتشابه الأفكار والأخرى خاصة بالتشابه في البناء الكلي للحكايتين. من خلال السير على أفكار متشابهة.

[٣] - كليلة ودمنة، ص ٤٦.

[٤] - الأسد والغواص ص٤٩

ب- تمايز الفردي في داخل الجماعي

تتنوع أعمال البشر وحرفهم مع تنوع حاجاتهم، ومن ثم يتم تقسيم المجتمع الإنساني إلى فئات، ولكل فئة خصائصها التي تميزها عن غيرها، وهي فئات تأخذ وضعا اجتماعيا يتسم بالاستقرار والرسوخ، ويحترم أفراد المجتمع غالبا هذا التمايز. [١] ثم تأتي الإشارة إلى تميز عنصر من عناصر المجموع الذي ينتمي إليه هذا العنصر، ففي كليلة ودمنة: "وكان فيما معه من السباع ابنا أوى، يقال لأحدهما كليلة والأخر دمنه، وكانا ذوي دهاء وأدب وكان دمنة أشرهما نفساً، وأقلهما رضا بحاله ولم يكن عرفهما" . [٢]

وجاء في الأسد والغواص "وكان فى جملة عسكره ابن أوى، وكان يقال له الغواص، وكان له رأى وأدب، إلا أنه كان محباً للدعة, راغباً فى الخمول، مشغوفاً بطلب العلم، قد انصرف إليه بجملته، فليس فيه فضل لغيره". [٣]

ج- القول بحاجة الملك إلى فئات مختلفة

التفت الناصحان في كلا الكتابين إلى حاجة الملك لأصناف مختلفة من البشر، (٤) فليس بالضروة أن يكون من يجاورهم جميعا من أصحاب العقول.

فحين ودَّ دمنة أن يلتحق بخدمة الملك ليحقق مرغوبه، يذْكُر للملك بأن الملوك تحتاج لعدد كبير من فئات البشر المختلفة لتنوع حاجات الملوك. "قال دمنة: لم أزل بباب الملك مرابطا رجاء أن يحضر أمر أُعين الملك فيه برأيي ونفسي. فإن باب الملك يكثر فيه التي ربما أُحتيج فيها إلى من لا نباهة له؛ وإن كان صغير المنزلة فيكون عنده منفعة بقدره؛ فإن العود المطروح في الأرض ربما انتفع به الإنسان في حك أذنه....". [٥]

---

[١] - ورد تحت عنوان (مراتب الندماء والمغنين لدي الفرس وفي الإسلام). يقول عن أردشير وترتيبه لرعيته إلى طبقات: "وكذلك جعل الناس علي أقسام أربعة، وحصر كل طبقة علي قسمتها: فالأولى، الأساورة من أبناء الملوك، والقسم الثاني، النساك وسدنة بيوت النيران، والقسم الثالث، الأطباء والكتاب والمنجمون، والقسم الرابع، الزراع والمهان وأضرابهم. وكان أردشير يقول: ما شيء أسرع في انتقال الدول وخراب المملكة من من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها، حتى يرفع الوضيع إلى مرتبة الشريف ويحط الشريف إلى مرتبة الوضيع" . أخلاق الملوك، للجاحظ، ص. ٣٢..

[٢] - كليلة ودمنة ص٤٦

[٣] - الأسد والغواص ص٥١

[٤] - جاء في كتاب أخلاق الملوك تحت عنوان "باب في منادمة الملوك" مراتب الندماء واحتياج الملوك لجميع الطبقات."ومن أخلاق الملك أن يجعل ندماءه طبقات ومراتب، وأن يخص ويعم، ويقرب ويباعد، ويرفع ويضع، إذ كانوا علي أقسام وأدوات. فإنا قد نرى الملك يحتاج إلى الوضيع للهوه، كما يحتاج إلى الشجاع لبأسه، ويحتاج إلى المضحك لحكايته، كما يحتاج إلى الناسك لعظته، ويحتاج إلى أهل الهزل كما يحتاج إلى أهل الجد والعقل، ويحتاج إلى الزامر المطرب، كما يحتاج إلى العالم المحقق" أخلاق الملوك، ص ٣٠

[٥] - كليلة ودمنة ص٥١ ط عزام.

وجاء في الأسد والغواص "ولا تقدر أن الملوك يحتاجون إلى أهل الكيس والفطنة فربما كان البغل والحمار وهما من أبلد الحيوان من مراكب الملوك مكرمين عندهم، والقرد؛ وهو أذكاها وأفطنها؛ ممتهناً مستذلا؛ لأنهُ ليس أمر العالم كله يجري على الكيس والفطنة ولا على الذكاء والمعرفة، ولكن لكل مقام مقال ولكل شيء مكان [١].

ويقول الغواص حين تعرض إلى الملك لينتسب لخدمته معللا ذلك بقوله: "فإنَّ المُلوكَ ربما احتاجت إلى الصغير كما تحتاجُ إلى الكبير، وربما كان الصغيرُ الحقيرُ أنفع من الكبير الخطير؛ فإنَّ الجِلاد ينفعُ فيما لا ينفعُ السيفُ فيه، والمرءُ قد يحتاجُ في الوقت إلى دواءٍ لا يُساوي حبَّةً ولا يقومُ له مقامَهُ أَلْفُ بدرة" [٢]

د- استشارة صديق في وجود مشكلة لدى الأسد وتحذيره من التدخل

حين طرأت مشكلة لدى الملك وانعكس شرها على الناس بادر شخص في كل حكاية لحل تلك المعضلة وحين هم بذلك استشار صديقا مقربا منه، وكلا الصديقين حذر من الاقتراب من السلطان خشية ما قد يلحقه من الضر.

فقد انطلق دمنة نحو أخيه كليلة يخبره بوجود معضلة لدى الأسد ورغبته في الذهاب إليه لحلها. "فقال دمنة لأخيه كليلة:" يا أخى ما شأن الملك مقيماً في مكانه لا يتحول، ولا ينشط، كما كان يفعل!؟" [٣] . ويرفض أخوه كليلة سعيه نحو الملك؛ لأنه تدخل فيما لا يخصهما: "فقال دمنة لكليلة: ما شأنك والمسألة عما ليس لك ولا يعنيك ؟ أما حالنا فحال صدق، ونحن على أبواب الملك واجدون ما نأكل، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك وما يكون من أمورهم، فاسكت عن هذا، واعلم أنه من تكلف القول والعمل ماليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار"[٤]

---

[١] - الأسد والغواص ص٦٢. وهو يفسر ذلك بسبب تنوع مهارات الأشخاص وتنوع احتياجات الملك بقوله: . فاعلم أن بعض الناس يصلح للجد وبعضهم للهزل وبين هذين درجات مختلفات، وأن اختلاف مقادير الناس عند الملوك كاختلاف مقادير الأطعمة عند الناس، فإن المرء قد يمل الأطعمة الحلوة والدسمة فتميل نفسه إلى الحريفة والمالحة وإن كان يعلم أن الأولى أجل وأنفع من الأخرى . والحلو وإن كان أطيب في الطعم فإن للمالح موقعًا من النفس لا يكاد يغني عنه ما هو أطيب طعماً منه وقد يميل المرء إلى اللون الذي يوافق مزاجه وتلتذه نفسه ويقبله طبعه فتحدث مُداومتُهُ له ضرباً من الملالة حتى لا يجد له لذة إلا بعد ما يجم به نفسه وهذا مثل من يريد أن يقتصر الملوك عليه من أهل الفضل والمعرفة والعلم والحكمة"ص٦٢.

[٢] - في كليلة ودمنة:"... فإنه لا يكاد يخلو أحد وإن كان صغير القدر والمنزلة أن يكون عنده منفعة وإن صغرت ؛ فإن العود المنثور في الأرض ربما انتفع به المنتفع تأكله أذنه فيحكّه بها...". ص ٥١.

[٣] - كليلة ودمنة ص ٤٦ عزام

[٤] - كليلة ودمنة ص٤٦ . وهذا ما فعله بيدبا إذ إنه أصر علي نصيحة الملك، ولم يستمع إلى نصيحة تلامذته حين رجوه ألا يذهب إلى دبشليم الظالم، خوفا عليه من بطشه وطغيانه.

وحين استشعر الغواص وجود المشكلة ونوى السعي في حلها والذهاب للملك، انطلق لصديق له يثق في رأيه ونصحه ليطرح عليه الفكرة: "فقال لصديقه ذات يوم : يا أخى! أما ترى الأسد مقارن فكر يخفيه ومضمر شئ لا يبديه؟

فقال له صديقه : إن من تكلف ما لا يعنيه أضر ذلك بما يعنيه، وليس لنا أن ننظر فى أمر ليس لنا ونحن فى عافية يجب أن نلزمها ما لزمتنا ما لزمتنا " [١]. ويأتي رد صديق الغواص رافضا فكرة الذهاب إلى الملك لما فيها من مضرة وهم ليسوا مضطرين لذلك

ولعل الملاحظة هنا أن الصديق في كلا الكتابين كان فردا ولم يكن أكثر، كما أن كلا الصديقين رفضا ابتداء الذهاب للملك، ولكنها رضخا في نهاية الأمر لرغبة طالبي النصيحة، حيث وجدا لديهما ردا على ما أثاراه من تخوفات ولكن ظلت فكرة التخوف من القرب من الملك حاضرة .

ز – استخدام التقرب من الملك ليكون وسيلة لتحقيق الغرض

استخدم دمنة والغواص التقرب إلى الملك وخدمته لكي يحققا الغرض الذي سعيا إلى تحقيقه، وحين تحين الفرصة ينفذ إلى غرضه.

وجاء في كليلة ودمنة "قال دمنة مخاطبا دمنة: لو دنوت من الأسد وعرفت أخلاقه، رفقتُ في متابعته وقلة الخلاف عليه، ثم انحططت في هواه... فإذا عرف نُبلي وكمال ما عندي، كان هو الذي يلتمس إكرامي وتقريبي" [٢]

يقول الغواص مخاطبا نفسه بحثا عن أنسب سبيل لتحقيق ما يريد:"والأحزم أن أتسبب إلى خدمته حتي يسكن إليَّ ويثق به، ويعرف طريقتي ومذهبي، وأتلطف في مباسطته وأترصد بعد ذلك طيب نفسه، فإذا ظفرت بهذه الخلال ذكرت ما عندي له، فإن لم أظفر بالمنفعة التي طلبتها، أمنت المضرة التي خفتها" [٣]

والواضح هو أن كليها بحث عن مدخل ملائم لتحقيق مبتغاه فكانت فكرة الانتساب للعمل لدى الملك هي الأنسب، فلم يحرص مثلا على إحضار هدية ثمينة مثلا للملك، ولم يكن أحدهما من أصحاب اليسار مثلا ليصبح أكثر ثراء وانتفاعا، كما لم يحرص أي منهما على ذكر أي أمر يتعلق بالقرب من الحاشية

[١] - الأسد والغواص ٥٢

[٢] - كليلة ودمنة ص ٥٠، وهو يذكر في موضع آخر أن فكرة التقريب لغرض شخصي :" ولكني أعرف أنه لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومن ترك الأمر الذي لعله أن يبلغ منه حاجته، مخافة لِما لعله يتوقاه ويُشق منه، فليس ببالغ جسيماً، وقد قيل في أمور

[٣] - كليلة ودمنة ص ٦٨ عزام

كوسيلة للتيسير على عملية القرب أسرع من الملك، لكون الحاشية تحوطه ولا تسمح لأحد بالدنوِ من الملك. كلاهما حرص على الانتساب لأجل اكتساب الثقة عن طريق ما يقدمه له من علم ورأي وحكمة.

هـ – ضرورة انتهاز الفرصة لتحقيق الغرض

بدا الوعي الشديد في كلا الكتابين بانتهاز الفرصة وعدم تفويتها، وضرورة اختيار المرء الوقت الأنسب لإنفاذ ما يأمله لجلب خير مأمول أو دفع شر محذور، إذ لا يكفي صواب الفكرة وحده.

جاء في كليلة ودمنة إلحاح على ضرورة عدم تضييع الفرص لأنها واحدة من أمور شتى تجعل صاحبها لا يستقيم أمرة، "وقيل في أمور شتى من كانت له لم يستقم أمره له: منها التواني في العمل، ومنها التضييع للفرص، ومنها التصديق لكل مخبر [١]

وجاء في الأسد والغواص قوله لصديقه –حين حذره من السير إلى الأسد لمساعدته في القضاء على خطر الجاموس– مبينا خطورة إهدار الفرصة السانحة:" فأخشى أن تكون الفرصة التي لي اليوم غُصة لي غداً، فيكون الذي أرجو من المنفعة به لنفسي ولجميع أهل المملكة من أبواب المضرة، فإن مُضيع الفرصة حقيق بالندامة في أثرها." [٢]

وقد تجلى الوعي بانتهاز الفرص حين عزم الغواص على الذهاب إلى الملك لدرء خطر الجاموس، فانتسب لخدمة الملك [٣] وظل يتحين الفرصة كي يتحدث مع الملك في شأنه، ليكون الأمر أدعى للقبول: "حتي إذا رأى الملك يوما من الأيام فَرِح القلب، نشيط النفس، كان إنما ينتظر مثل ذلك منه، قال: في مثل هذا الوقت تنجح نصيحتي... [٤]

---

[١] - كليلة ودمنة ص ١١.

[٢] - الأسد والغواص ص ٦٠ وورد أيضا :" "ويقال: من ظفر بالساعة التي فيها ينجح العمل ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم، ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فاته الأمر، وهو خليق ألا تعود له الفرصة ثانية ومن وجد عدوه ضعيفاً ولم ينجز قتله ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه".

[٣] - ارتأى الغواص أن ينتسب لخدمته ليحقق غرضه يقول" ثم إن الغواص فكر فى نفسه وقال: أخشى أن أبدأ الملك بنصيحتى ولست من أهل أنسه، فيكون من أمره ما يضع بين شعرى وقولي، فأكون قد طلبت منفعته بمضرته، فلا أنا نفعته وضررت نفسى، ... " ثم يعدد أسبابا متنوعة يتخوف بها بدء الملك بالنصح لما فى ذلك من محاذير تحول بينه وبين تحقيق غرضه ثم يصل الى فكرة يراها أنسب فى الوصول لغرضه وهو " والأحزم أن انتسب الى خدمته حتى يسكن الى ويثق بى ويعرف طريقتى ومذهبي، وأتلطف فى مباسطته، وأترصد بعد ذلك طيب نفسه، فإذا ظفرت بهذه الخلال ذكرت ما عند له، فإن لم أظفر بالمنفعة التى طلبتها أمنت المضرة التى خفتها " الأسد والغواص ص٦٨ .

(٤) - الأسد والغواص ص٧٨

و- تحديد المشكلة والنصيحة للملك:

كلا الناصحين استطاع أن يحدد المشكلة ووجد كل منهما لديه من العقل والفكر ما يمكنه من الحل ومن ثم توجه للملك ناصحا متحينا الفرصة.

ففي كليلة ودمنة لم يبادر دمنة بالمفاتحة مباشرة في أمر الثور ولكنه لما حانت لحظة مناسبة استغلها، وذلك حين سمع الملك صوت الثور فتحركت مخاوفه وهواجسه وانزعج فبادر دمنة إلى تقديم ما لديه من حلول. "فبينما هما على ذلك خار الثور خوارا شديدا، فهيَّج الأسد على أن يخبر دمنة بما في نفسه... قال دمنة هل راب الملك شيء غير هذا؟" ثم يقول:" فإن شاء الملك فليبعثني نحوه، وليقم مكانه حتي أرجع إليه ببيان ما يحب أن يعلم منه، فوافق ذلك الأسد، وانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه الأسد".(١)

وكان الغواص يعلم تمام العلم بمشكلة الأسد مع الجاموس، وما انطلق للأسد إلا لتكون هذه المعضلة وسيلة الولوج لعالم الملك لحلها من أيسر طريق، ولكنه لم يشأ أن يبادر بمفاتحته في الأمر، فلما اطمأنت نفس الملك إليه، وذكر له أن عنده نصيحة له، يأخذ بها إن شاء، ولكنها تحمل منفعة له ولرعيته: فقد خدع الغواص نفسه وبسطها بحضرة الملك، فكما قال له" رجاء بلوغ محبوبك، وإزالة ما أهمك" "يقول الغواص للملك: "وأنا أرى فى نفس الملك شيئا، فأنا أجهد أن يكون كفايته فيما أهمه بيدى ورأيي ..." (٢) ويرى الملك منه حسن منطقه وعقله :" وأنا أؤمل أنك كما تلطفت في سؤال أن تتلطف في كفاية ما أهمنى"(٣)

ز- حسن ظن الملك بهما بعد سماعهما

استطاع كل من الغواص ودمنة في الحكايتين أن ينال كل منهما إعجاب الملك بحسن منطقه، ورجاحة عقله، وسعة أفقه، ولين الرد، وقوة الحجة.

فقد ورد في كليلة ودمنة " فلما سمع الأسد قول دمنة أعجبه، ورجا يكون عنده نصيحة ورأي"(٤)

(١) - كليلة ودمنة ص ٥٥
(٢) - الأسد والغواص ص٥٤
(٣) - الأسد والغواص ص٨١
(٤) - كليلة ودمنة ص ٥١، وورد في موضع آخر :"فلما فرغ دمنة من مقالته ازداد الأسد به إعجابا، وله استطرافا، وأحسن إليه" ص٥٤

وجاء في الأسد والغواص "فلما سمع كلامه ظن فيه خيراً، وقّدر عنده رأياً". [١] وورد بعدها "فاستحسن الأسد كلامه، وقوى ظن الخير عنده" [٢]

ح- رغبة الملك في توظيف صاحب النصيحة

سعى الملك في كلا الكتابين إلى استعمال صاحب النصحية بعض أموره، إيمانا منهما بقدرته على مساعدتها في أمر المُلك.

وهذا ما نجده في كليلة ودمنة حين طلب الملك دبشيليم من بيدبا أن يبقي ليدير معه شئون المملكة، وحدث أيضا مع كليلة وإن كان بشكل غير واضح ولكنه يفهم ضمنا، ويمكن أن نستشف ذلك من أنه استطاع أن يحرض الأسد نفسه على قتل شتربة، هذا لا يكون إلا إذا كان مقربا منه، ولكن ربما كانت المعضلة لدى كليلة هي أنه لم ينل ما كان يؤمله من عظم المنزلة ورفعة الشأن على من سواه.

كما سعى الملك إلى استعمال الغواص في أعماله، "قال له الأسد : إنى لابد من استعمالك، بعدما ظهر لي من غنائك ونصحك، وإلا كنت بمنزلة من وجد جوهرة نفيسة فاطرحها وهو عارف بقدرها. ويؤكد ذلك الاستحقاق بقوله: " وأنا قد رأيت منك لطفاً فى الأمور، وإصابة فى التدبير، ونفاذا فى الرأى، ومعرفة بالأحوال" [٣] . ثم يقول: قال له الأسد: إنك عاملتنى بجميل، وبلغت من خدمتى مبلغاً حسناً، ولست ممن يرضى لنفسه بالتقصير فى مكافأة ما أُسدى إليه، وقدرتى واسعة؛ فلا عذر لي فى التقصير، وأنت قد استسهلت المشقة فى الإحسان حتى أتيته، وأنا على مكافأتك عليه أقدر مع أنك المبتدئ وأنا المكافئ، وأنا أعذر لو لم تحسن، وأنا أقل عذراً إن لم أفعل، لأن الإبتداء بالإحسان، نافلة مستحسنة والمكافأة فريضة ملتزمة، وتارك الفرض مذموم..." [٤] . قال له الغواص : أيها الملك! إنما المجازاة تحسن بما ينفع لا بما يضر... لأن الإحسان إنما يكون مع المنفعة، والمنفعة حسب الحاجة، لا بكثرة الثمن وعزة الوجود"" [٥].

---

[١] - الأسد والغواص ص ٦٩
[٢] - الأسد والغواص ص٧٦
[٣] - لأسد والغواص ص١١١
[٤] - الأسد والغواص ص١١١
[٥] - الأسد والغواص ص١١٢

ط- موقف الناصح من الاستمرار في خدمة الملك

ظل بيدبا الفيلسوف في خدمة الملك، بعد أن طلب إليه مشاركته في الحكم، وظل بمثابة معلم الملك ومرشده. وقد بدا ذلك حين طلب إليه أن يؤلف كتابا يبقى ذكره بين الناس فألف له كليلة ودمنة، وأيضا بدأ الملك يسأل والفيلسوف يجيب عنها، ويبدو الفيلسوف في صورة المعلم والحكيم بينما يبدو دبشليم في صورة المتعلم والمستمع الجيد لما يقول بيدبا.

أما دمنة فقد ظل في خدمة الملك، ولكنه لم يحصل على المكانة التي كان يطمح إليها بينما حاز الثور على مكانة عالية، وهذا ما أثار دمنة وأحنقه عليه؛ لذا سعى للتخلص منه.

أما الغواص فإنه لما عرض الملك عليه البقاء معه ليعينه في شئون الملك رفض في بداية الأمر؛ فهو لا يحسن هذا العمل ولا خبرة له به ولا يتفق وهواه، ثم طرح- مع إلحاح الملك عليه- حلا وسطا يحقق منفعة الطرفين. "وإذا كان الملك يريد أجراً على نصيحتى وخدمتى فليتركنى كما كنت ريِّح القلب؛ فإن ساعة من ساعات السلطان تشسيب القلب والكبد. وإنما يحتمل المشقة من لا يقنعه إلا الكثير فيحتمل فى بلوغ غرضه عظيم المشقة. وأنا فقليلٌ فى خفض ودعةٍ أحبُّ الى من كثير فى نصب وخوف وليست اللذة بحسب الكثرة وإنما بحسب الحاجة". [١]

ي- اكتساب الثقة ودواعيها

يلاحظ أن كلًّا من دمنة والغواص استطاع أن ينال رضا الملك ويحوز على إعجابه، وذكر الملك في الحكايتين دواعى طلب الاستخدام.

فقد جاء في كليلة ودمنة: "ثم إن الأسد قرب شنزبة وأدناه وكرّمه، وأنس منه رأيا وعقلا. فائتمنه على أسراره وشاوره في أموره. ولم تزده الأيام إلا إعجابا به، ورغبة فيه، وتقريبا له، حتي صار أخص أصحابه عنده منزلة، فلما رأى دمنة أن الملك قد استخص شتربة واستدناه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحب رأيه وخلواته وأنسه ولهوه، اشتد ذلك عليه. فشكا ذلك إلى أخيه " [٢]

وجاء في الأسد والغواص:"فلما سمع كلامه ظن فيه خيرا، وقدر عنده رأيا" [٣]، وورد بعدها في موضع آخر:"فاستحسن الأسد كلامه، وقوي ظن الخير به عنده" [١]، وبعد حوار بينه وبين الملك وتلطفه في إيراد

(١) - الأسد والغواص ص١١٢
(٢) – كليلـــة ودمنـــة ص٥٨
(٣) - الأسد والغواص ص ٦٩

النصح :" لقد أحسنت التلطف" [٢] ثم يقول له بعد نجاح حيلته :" لقد أحسنت الحيلة وبلغتَ ما لا يُبلغ بالقوة" [٣] ثم يقول له حين طلب استعماله :" إني لابد من استعمالك بعدما ظهر من غَنَائك ونصحك" [٤] ثم يقول :"وأنا قد رأيت منك لطفا في الأمور وإصابة في التدبير، ونفاذا في الأمور في الرأي، ومعرفة بالأحوال" [٥] ثم يقول الأسد :" لقد عاملتني بجميل، وبلغت من خدمتي مبلغا جسيما " [٦] وحين تأسست العلاقة بين الغواص والملك على المعرفة "فقبل الأسد كلامه، وعرف مقاله، وصار يتردد إليه في أوقات خلواته، وأُنسه، وساعات نشاطه، فيُهدي إليه من طُرف العلم وتُحف الأخبار ومحاسن الآثار، ومكايد الملوك وسياستهم وثاقب آرائهم ودقة مراميهم، حتى زاد أنس الأسد به، واشتغل به عن كثير من أصحابه، فحسده قوم من خواصّه، وأجمعوا على مكيدته" [٧]

ك- <u>النصح بالبعد عن القتال واللجوء للحيلة</u>

ورد في كلتا الحكايتين حرص شديد على البعد عن القتال ما دامت هناك بدائل قد تؤدي الغرض وتفي بالمرجو، باستخدام العقل وما ينتجه من أفكار وحيل.

فقد جاء في نصح كليلة لدمنة حين هم بتحميل الأسد على الثور:" أولستَ تعلم أن أعجز الرأي ما كلف صاحبه القتال وهو عنه غني؟ وأن الرجل ربما أمكنته الفرصة في عدوه فتركها مخافة تعرض النكبة ورجاء أن يقدر على حاجته بغير ذلك. وإذا كان وزير السلطان يأمره بالمحاربة فيما يقدر على بغيته فيه بالمسالمة فهو أشد ضررا من عدوه" [٨] . وجاء في كليلة ودمنة أيضا على لسان أحد وزراء ملك البوم حين آذهم الغربان وبدأوا يفكرون في الرد عليهم "وأكيسُ القوم من لم يلتمس الأمر بالقتال ما وجد إلى غير القتال سبيلا؛ فإن النفقة في القتال من الأنفس، وغير ذلك إنما النفقة فيه من الأموال. فلا يكونن قتال البوم من شأنكم، فإن من يواكل الفيل يواكل الحيف." [٩]

---

[١] - الأسد والغواص ص ٧٦
[٢] - الأسد والغواص ص ٨١
[٣] - الأسد والغواص ص١٠٨
[٤] - الأسد والغواص ص ١٠٩
[٥] -الأسد والغواص ص١١١
[٦] - الأسد والغواص ص ١١٢،١١١
[٧] - الأسد والغواص ص ١١٨
[٨] - كليلة ودمنة ص٨٨
[٩] - كليلة ودمنة ص ١٥٠ عزام

ونجد هذا حين أشار الغواص على الملك بعدم مصادمة الجاموس، لما فيه ذلك من مخاطرة مع وجود بدائل لذلك :" أيها الملكّ إن الحازم لا يقف مع عدوه على حال يخشى فيها على نفسه مثل ما يرجو في عدوه إلا على حال ضرورة... وقد قالت الحكماء ينبغي أن يستعمل مع عدوه أربعة أوجه: اللين والبذل والكيد والمكاشفة" [١] . وهو ما تجلى في قصة النمر والذئب التي أشار فيها الغواص بعدم مصادمة النمر واللجوء للحيلة للخلاص منه. [٢]

ل- <u>أثر الإلحاح بالكلام على الملك من قبل البطانة</u>

نجد في كلا الكتابين إشارة واضحة –وفي الموقف ذاته– ما يشير إلى أثر تكرار الكلام على نفس السامع خاصة من قبل البطانة.

ونجد هذا الأمر في قصة الأسد والذئب وابن آوى والغراب مع الجمل يشير إلى خطورة تكرار الكلام وتأثيره على نفس الملك :"ولو أن الأسد لم يكن في نفسه لي إلا الرحمة والحب لم تُلبثه الأقاويل إذا كثرت عليه، أن يذهب هذا كله حتي يستبدل به الشرارة والغلظة. ألا ترى أن الماء ألين من القول وأن الصخر أشد من القلب وليس يلبث الماء إذا طال تحدره على الحجر الصلد أن يؤثر فيه" [٣] .

وفي الأسد والغواص في محاولات البطانة التخلص من الغواص على الرغم من مكانته القوية لديه. " واعلموا أنه إذا ورد على الملك أول مرة ما لا يتحققه فإنه وإن لم يقبله فسيؤثر في نفسه، وإذا عاود إليه مثله أو شبهه أثَّر مثل ذلك. وإذا دام ذلك فهو سيبلغ ما يراد أو أكثره، فقد قالت الحكماء: <u>إن الماء يؤثر في الصخرة الصماء إذا دام عليها</u> قطره، <u>وكذلك الكلام يؤثر في القلوب إذا دام منها استماعه</u>"" [٤].

والملاحظ هنا أن من يُتحدث عنهم أحد المقربين جدا إلى الملك ويراد الإيقاع به، ويلحظ كذلك الإدراك القوي لأثر تكرار الكلام والإلحاح عليه وأن لا بد صائر إلى إحداث تحول جذري في العلاقة من الحب الشديد إلى البغض والنفور.

---

[١] - الأسد والغواص ٨٢. وهو يشبه ذلك بالدمل الذي يستعمل له في أول أمره التخليل، فإن لم ينفع فالتليين، فإن لم ينجح فالإنضاج، فإن لم ينجح فالبطُّ فإن لم ينجح فالكي، وهو آخر العلاج، فإن استعمل أحدها مكان الآخر كان ذلك فسادا في التدبير ووضعا للشيء في غير موضعه" ص ٨٢.

[٢] - الأسد والغواص ١٢٥.

[٣] - كليلة ودمنة ص٨٣

[٤] - الأسد والغواص ص١٢٠، ١٢١

م- التحميل والتشبيه والتدليس من قبل الحاشية

ورد في الكتابين ما يشير إلى دور الحاشية في عملية تلبيس وتحميل وإيقاع بين الملك ومن قرَّبه منه ويتم استخدام حيل مختلفة لإحداث ذلك .

وجاء في كليلة ودمنة في باب الأسد وابن آوى: "ما ينبغي للأسد أن يغدر بي، ولم أذنب إليه ولا إلى أحد من جنده، وأظنه قد حُمِّل عليَّ، وشّبّه عليه في أمري، فإنه قد صحبه قوم سوء، جرَّب وعرف منهم أشياء هي تصدق عنده ما بلغه عن غيرهم، فإن مقارنة الأشرار ربما أورثت أهلها تهمة الأخيار" [١] . ونلاحظ أن الاحتمالات القائمة في كلا الموقفين ترتكن إلى ثلاثة احتمالات فقط، وهي القسمة المنطقية التي يوجبها العقل، فأحد هذه الاحتمالات أن يكون أي من الناصحين ارتكب مأثما، تُستبعد تماما فكرة أن يكون أحد الطرفين قد أخطأ أو ارتكب جرما يعاقب عليه، حتى لو كان الأمر من باب الظن. كما أن الملك في كليهما لم يكن محلا في هذا الظن السيء فكل منها يعرف أخلاقه وهذا لا يمكن أن يكون منه. ويبقي الاحتمال الثالث هو القائم بقوة حسب ما توجبه القسمة العقلية، ويأتي تبرير ذلك من خلال قدرة هذا الطرف على الغش والتدليس والتشبيه على صاحبي النصيحة.

ويقول الغواص : فكرت في أمري فوجدته لا يخلو من أحد ثلاثة أقسام: إما أن يكون لأمر يرجع إلي أو يرجع إليه، أو لأمر يرجع إلى غيري وغيره.، فأما ما يرجع إلي فإني على ثقة من نفسي فيه أني لم آت ما أستحق له بعض ما كان منه، وأما ما يرجع إليه فإني على ثقة منه ثقتي بنفسي فيه ... ولم يبق مما توجبه القسمة إلا أن الأمر يعود إلى غيرنا معا، وغيرنا لا يقدر أن ينقلني عن نصيحتي ولا يقدر أن ينقله عن كرم طبعه، ولكن يقدر أن يشبه ويُلْبس ويحتال ويموه فيُشبّه عني فيه..." [٢]

ن- الغضب عن علة أو غير علة

جاء على لسان الثور في كليلة ودمنة "وأعجب منه أن أكون أنا الذي أطلب رضاه وموافقته فلا يرضى، وأعجب من ذلك أن ألتمس محبته وأجتنب مخالفته فيغضب ويسخط، وإن كانت مَوجَدته من غير سبب انقطع الرجاء؛ لأن العلة إن كانت في المعتبة في ورودها، كان الرضا في إصدارها، وهي أن تذهب أحيانا وتوجد أحيانا. ....." [٣] .

---

[١] - كليلة ودمنة ص ٧٥
[٢] - الأسد والغواص ص ١٥٥
[٣] - كليلة ودمنة ص ٧٩

وقد أشار صاحب الأسد والغواص إلى فكرة أن الغضب إذا كان عن سبب معروف كان دواء ذلك سهلا، وعلاجه ميسورا، ولكن حين يكون الغضب عن غير سبب معروف كان دواؤه مستعصيا وعلاجه عضالا.

يقول صاحب الأسد والغواص: "قال بعض الحكماء: إن الغضب إذا كان عن سبب يعرف كان الرضا سهلا يسيرا، وإن كان بلا سبب كان الرضا صعبا ممتنعا" [١]

هـ- حسن الظن بعواقب إخلاص نية العمل ودقة أدائه

ورد في الكتابين ما يشير إلى الثواب الذي يأمله صاحبه من وراء عمل يخلص فيه نيته، هو عمل قد يكلفه المخاطرة بحياته.

فقد قال شتربة لدمنة حين حمله على قتال الأسد: "فإنه ليس للمصلي في صلاته ولا للمتصدق في صدقته ولا للورع في ورعه مثل أجر المجاهد بنفسه ساعة من نهار إذا كان محقا، وكان عدوه مبطلا، فإنه على ذلك من أمرين يستيقن منهما الأخيار: إن قُتل فالجنة وأن قَتَل فأجر وظفر". [٢]

وجاء في الأسد والغواص رداً على صديقه الذى ينبهه الى أن ما سيقدم عليه من دخوله على الملك بغية نصحه، فيه خطر كبير وشيك له، : "ولولا المخاطرة ما تم فى العالم عيش، وخير الخطر ما كان فى ثواب باقٍ، وطلباً لسلامة دائمة، وإذا كانت نيتى فى الله وثقت بكفاية الله، وكنت مع الله على إحدى ثلاث حسنات: إما كفاية، أو أجر، أو كفاية وأجر، وإذا كان لا سبيل الى البقاء، ولا بد من الذهاب فإن الذهاب فى طلب الحق خير من الحياة فى الباطل". [٣]

[١] - الأسد والغواص ص١٦٥
[٢] - كليلة ودمنة ص ٨٣ عزام.
[٣] - الأسد والغواص ص ١٠١ .

٦-التشابهات اللغوية

ظهر في عدد من المواضع في كلا الكتابين وجود تشابهات لغوية، سواء أكان ذلك على مستوى بعض التراكيب أو الصور، بما يشير إلى حضور نص كليلة ودمنة حضورا قويا لدى صاحب الأسد والغواص، وهذا لا يكون إلا بالقراءة المتكررة لكليلة ودمنة أو حضور النص أمامه، خاصة أن التشابه هنا يتصل ببناء لغوي وليس بأفكار.

أولا: التشابه في التراكيب

يوجد بعض أوجه التشابه في بعض التراكيب سواء أكان ذلك من خلال بناء التركيب أو مضمونه أو كليهما.

جاء في كليلة ودمنة " ثم إن بيدبا اختار يوما للدخول على الملك؛ حتى إذا كان ذلك الوقت ألقى عليه مسوحه وهى لباس البراهمة؛ وقصد باب الملك " [١] .

وجاء في الأسد والغواص: " ثم إنه تعرض للسلام على الأسد، وصار يطرى حضرته، فأنكر ذلك من حاله" [٢]

والتشابه في التركيب يتجلى من خلال استخدام حرف العطف ذاته (ثم)، بعده حرف الناسخ (إن) وبعده اسمها (الفيلسوف بيدبا، والضمير العائد على الغواص)، ثم تأتي الوجهة التي انطلق إليها كلاهما واحدة. باستخدام جملة فعلية "اختار يوما للدخول على الملك" وفي جملة الأسد والغواص "تعرض للسلام على الأسد". (تعرض اختار، للدخول/ للسلام، على الملك/ على الأسد).

وجاء في كليلة ودمنة: "وكان فيما معه من السباع ابنا أوى، يقال لأحدهما كليلة والآخر دمنة، وكانا ذوي دهاء وأدب، وكان دمنة أشرهما نفسا، وأقلهما رضا بحاله ولم يكن عرفهما" [٣]

ومن ذلك أيضا ما جاء في الأسد والغواص :" وكان فى جملة عسكره ابن أوى، وكان يُقال له الغواص، وكان له رأى وأدب، إلا أنه كان محبا للدعة, راغبا فى الخمول، مشغوفا بطلب العلم، قد انصرف إليه بجملته، فليس فيه فضل لغيره " [٤]

---

[١] كليلة ودمنة، نسخة المرصفي ص ٨٠

[٢] - الأسد والغواص ص ٦٩

[٣] - كليلة ودمنة ص٤٦ عزام

[٤] - الأسد والغواص ص٥١

ويلاحظ في التركيبين السابقين عدة أمور: أبرزها، أن ترتيب مكونات الجملة في كلا التركيبين جاء متشابها؛ فالجملة في كلتا الفقرتين بدأت بـ (كان).، وجاء ما بعدها دالا على المجموع الذي ينتمي إليه ابن آوى (في جملة عسكره) (كان ممن معه من السباع).أما اسم كان أو المخبر عنه فهو (ابنا آوى) و(ابن آوى). دون أن يزيد صاحب الأسد والغواص على هذا التحديد فيصف العسكر مثلا أو مما يتكون. وأتت الجملة التانية مبنية للمجهول وفيها ذكر للتسمية التي تطلق على كل منهما، (وكان يقال له الغواص) وفي كليلة ودمنة (يقال لأحدهما كليلة والآخر دمنة)، ويلاحظ أن الجملتين تتفقان في مكوناتهما (الفعل المبني للمجهول وحرف الجر لـ، والضمير العائد على كل من الطرفين (ابن اوى) و(ابنا آوى). ثم الاسم/ اللقب الذي يطلق. وجاء عن دمنة "وكان أقلهما رضا بحاله"، بينما جاء عن الغواص "إلا أنــه كان محبا للدعة"، وهذا يعني وجود تمايز بين الشخصتين.

ومن التراكيب التي تأتي متشابهة في كلا الكتابين، ويلاحظ أنها تأتي في موقفين متشابهين أيضا قول كليلة ناصحا دمنة بالبعد أيضا عن الملك "واعلم أنه من تكلف القول والعمل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار"[١]

وقول صديق الغواص ناصحا له: "إن من تكلَّف ما لا يعنيه أضرَّ ذلك بما يعنيه " [٢]

ويلاحظ أن العبارة مبنية على أسلوب الشرط بالإضافة إلى استخدام الألفاظ ذاتها تقريبا. أداة الشرط (من)، فعل الشرط (تكلف)، وتأتي تتمة الجملة في الغواص (ما لا يعنيه)، ويأتي ما يوازيها في كليلة ودمنة (ما ليس من شأنه) والجوب في كليهما متشابه في أثره، حيث يشير إلى وقوع ضرر محقق على المتكلِّف ما ليس له.

ومن هذا التشابه في التراكيب ما يتصل بالتشبيه والتلبيس والتمويه من قبل الحاشية. فقد جاء في كليلة ودمنة في باب الأسد وابن آوى: " ما ينبغي للأسد أن يغدر بي، ولم أذنب إليه ولا إلى أحد من جنده، وأظنه قد حُمِّل عليَّ، وشّبّه عليه في أمري، فإنه قد صحبه قوم سوء " [٣]

(١) - كليلة ودمنة ص٤٦ . وهذا ما فعله بيدبا إذ أنه أصر علي نصيحة الملك، ولم يستمع إلى نصيحة تلامذته حين رجوه ألا يذهب إلى دبشليم الظالم، خوفا عليه من بطشه وطغيانه" ص ص٧٩

(٢) - الأسد والغواص ٥٢

(٣) - كليلة ودمنة ص ٧٥

وحين حاول الغواص الوصول إلى سبب حبس الملك له دون أن يرتكب ذنبا. وضع احتمالات تتعلق بالملك وبه وببعض حساده، فلا يرى نفسه أخطأ ولا أن أخلاق الملك تدفعه لحبسه بلا جرم ثم يبقي الاحتمال الثالث الخاص بالحساد "... ولم يبقَ مما توجبه القسمة إلا أن الأمر يعود إلى غيرنا معا، وغيرنا لا يقدر أن ينقلني عن نصيحتي ولا يقدر أن ينقله عن كرم طبعه، ولكن يقدر أن يُشبّه ويُلْبس ويحتال ويموه فيُشبّه عني فيه..." [١]

ومن أبرز أوجه هذا التشابه في التراكيب ما ورد في كلا الكتابين من خطاب مطول للنفس، فيه مراجعة لها ولوم وتأنيب على ما ضيعت وفرطت، وفيه تحفيز لها على الخير والبعد عن الشر وعن الشهوات والطمع والشره وكل مساوئ الأخلاق.

فقد ورد في كليلة ودمنة في (باب برزويه الطبيب)، عند لوم برزويه الطبيب نفسه "وكنت أقرِّع نفسي إذا هي نازعتني إلى أن تغبِط أولئك، وتتمنى منازلهم، وآبَى لها إلَّا الخصومة، وأقولُ:

- يا نفس، أما تعرفين نفعك من ضُرِّك؟ ألَّا تنتهين عن الرَّغبة فيما لم يَنَلْه أحد إلَّا قلَّ انتفاعه به وكثُر عناؤه فيه، واشتدت مئونته عليه عند فراقه، وعظمت التبعة عليه بعده؟
- يا نفس أما تذكُرين ما أمامَك فَتَنْسَيْ ما تَشرَهين إليه فيما بين يديك؟ ألا تستحين من مُشاركة الفجرة الجُهَّال في حب هذه الفانية البائدة التي من كان في يده منها شيءٌ فليس له ولا بباقٍ عليه، والتي لا يألفها إلَّا المغترُّون الغافلون؟ [٢]

وقد جاء في الأسد والغواص هذا الخطاب الموجه للنفس في نهاية الحكاية حين انصرف الغواص عن الدنيا وانقطع للزهد والنسك والعبادة وجاءت عبارة "يا نفس" ٨ مرات. [٣] ويلاحظ أن الخطاب الموجه للنفس هنا يستتبعه بعض الأمور التي تأتي متشابهة في كليهما، هو استخدام الأدوات التي تتصل بآليات

---

[١] - الأسد والغواص ص ١٥٥

[٢] - ومن ذلك أيضا. يا نفس، أقصري عن هذا السفه، وما أنت عليه من خطل الرأي فيه، وأقبِلي — بقوَّتك وسعيك وما تملكين — على تقديم الخير والأجر ما استطعت، وإياك والتسويفَ والتواني، واعلمي أنَّ هذا الجسد ذو آفاتٍ. يا نفس، لا تغتري بصحبة أحبائك وأخلائك، ولا تحرصي على ذلك، فإنها على ما فيها من السرور والبهجة كثيرةُ الأذى والمئونات والأحزان، ثم تختتم ذلك بقطع الفراق. يا نفس، لا يحملنَّك ما تريدين من صلة أهلك وأقاربك والتماس وفور في المال والجاه وغيرهما مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولًا ولا عملًا . يا نفس، لا تغتري بالغنى والمنزلة التي تبطر أهلها، فإنها إلى انقلاب، وإنَّ صاحب ذلك لا يُبصر صِغر ما يستعظم حتى يُفارقه، يا نفس، دومي على مداواة المرضى، ولا يعوّقْكِ عن ذلك أن تقولي: إنَّ الطبَّ مئونة شديدة، والناسُ بمنافعها ومنافع الطب جُهَّال، ولكن اعتبري بمن يُفَرِّجُ عن رَجُلٍ كُربةً تحُلُّ به، ويستنقذه منها حتى يعودَ بها إلى ما كان يكون فيه من السَّعة والرَّوح، فإنه أهلٌ لعظيم الأجر وحُسن الجزاء. يا نفس، لا يبعُدنَّ عليك أمرُ الآخرة الدائمة فتميلي إلى الدُّنيا الزائلة، فتكوني في استعجال القليل وبيع الكثير باليسير.

[٣] - الأسد والغواص من ص٢٠٠إلى ٢٠٤.

البث الشفوي مثل الأمر والنهي، التحضيض والعرض والاستفهام. ويظل الخطاب فيها مقتصرا على النفس فقط ولا تدخل فيها عناصر بشرية أخرى، وحتي ما يرد فيها من قصص قصيرة يظل موجها لتحفيز النفس على الزهد والنسك.

وجاء في الأسد والغواص:"فلما فارقه تتبعت نفسه ما كان من الدنيا واستوحشت من مفارقتها، لما تلبس به من عاداتها، فأقبل على لومها وعذلها. فقال يا نفسُ! إن الدنيا لا تدوم فمن لا يفارقها طوعا وهو محمود فارقها كرها وهو مذموم. يا نفسُ! إنه من أمات شهوته في الدنيا، أحيا نفسه في الدار الآخرى، يا نفسُ! إذا جزعت من فراق الدنيا وأنت فيها ولك قدرة على الرجوع إليها، فيكف يكون حالك وقد خرجت منها وحيل بينك وبين الرجوع إليها.." [١]

ثانيا: التشبيهات

وردت بعض التشبيهات المتقاربة في كلا الكتابين، وهذه التشبيهات ليست من التشبيهات المألوفة أو المكررة التي يمكن القول إنها نتاج ثقافة عصره.

فقد ورد تشبيه الملك بالبحر وكذلك الحاشية بالريح/ الأمواج:

جاء في كليلة ودمنة " إنما السلطان بأصحابه وأعوانه كالبحر بأمواجه" [٢]

وهي تشبه ما جاء في الأسد والغواص "قال صديق الغواص:إن الحكماء قد قالوا إن الملك كالبحر وأصحابه كالرياح تصرِّفه كيف تصرفت، فإن هاجتْ هاج، وإن سكنتْ سكن " (٣)

ومن ذلك أيضا ما ورد عن أثر تكرار الكلام في نفس المتلقي وتشبيه ذلك بالماء الذي يتساقط قطره على صخرة فلا يزال بها حتي يؤثر فيها:

جاء في كليلة ودمنة هذا التشبيه ذاته :"ألا ترى أن الماء ألين من القول وأن الصخر أشد من القلب وليس يلبث الماء إذا طال تحدره على الحجر الصلد أن يؤثر فيه" [٤] .

---

[١] - الأسد والغواص ص ٢٠٠،٢٠١. ومن ذلك قوله: يا نفس لا يحملنك حطام الدنيا على الهلاك بها، فتكونين كالذبابة التي يُغرقها العسل محبتها له. يا نفس، إن لذة الدنيا كزهر الربيع يعود بعد قليل شوكا. يا نفس، الدنيا كالقصاب الذي يسمن ليذبح لا ليمنح وكالصياد الذي يطرح الحب ليصيد لا ليجود" ص ٢٠٤.

[٢] - كليلة ودمنة ص٩٠ عزام

[٣] - الأسد والغواص، ص ١٥٧

[٤] - كليلة ودمنة، ص٨٣

وورد في الأسد والغواص "وقد قالت الحكماء: إن الماء يؤثر في الصخرة الصماء إذا دام عليها قطره، وكذلك الكلام يؤثر في القلوب إذا دام منها استماعه" (١)

٧- المسكوت عنه في كلا الكتابين

إذا كنا نستدل على وجود تأثير من خلال وجود تشابه أو تقارب –أيا كان حجمه وكيفه– في المبنى الحكائي أو الإطار أو الأفكار أو بعض الأساليب أو الأمثال في الحكايتين دليل على وجود تأثير وتأثر بينهما، فإننا يمكن كذلك أن نعدّ العناصر المسكوت عنها دليلا على وجود تشابه بينهما، وذلك حينما يمكن للراوي في الحكاية الثانية (الأسد والغواص) أن يتخذ مسارات مختلفة عما ورد في الحكاية الأولى (كليلة ودمنة)، خاصة في بعض التفاصيل التي لا تخلخل الإطار العام ولا تعوق سير الحكاية. ويبدو إغفالها ليس لأن سياق الحكاية يقتضي ذلك وإنما هو –غالبا– السير على منوال كتاب كليلة ودمنة. ومن هذه العناصر البارزة التي اختفت في (الأسد والغوص) كما اختفت من كليلة ودمنة:

- أن الملك لم يُسمَّ في الحكايتين، فيما عدا ورود اسمه مرة واحدة في "كليلة ودمنة" في بداية الحكاية، (٢) ربما في محاولة الإيهام بالصدق الحكائي، ولم يرد اسمه بعد ذلك، مما يشير إلى أن الأسماء ليست بذات أهمية كبيرة، ضمن بنية الحكائي، فلم يكن الأمر تسجيلا لتاريخ أو وقائع، أو تأريخا لحوادث أو مواقف، ولكنه بثٌّ للحكمة من خلال إطار تم اصطناعه وطبعه بطابع شبيه بالواقع.
- أن كلا الناصحين حين عرضا على صديقيهما فكرة الذهاب للملك، كانا بمفرديهما، ولم يكن أكثر من فرد. ولم يعرض أي منهما الذهاب معه إلى الملك للمساهمة في حل المشكلة التي ألمت بالملك والمملكة، كما لم يقترحا عليه شخصا بعينه ليستعين به عند لقيا الأسد، سواء أكان من الحاشية أو من خارجها.
- أن كلّا من كليلة في (كليلة ودمنة) والغواص في (الأسد والغواص) –حين عرضا على الملك أن يخلصاه من مصادر الخوف (الثور/الجاموس)– ذهب كل منهما منفردا على الرغم من أن كلا منهما أفصح عن نيته التوجه للسلطان لبعض المقربين، دون أن يصحب معه أحدا منهم، أو يعرض أحد

(١) - الأسد والغواص، ص١٢٠، ١٢١.
(٢) - ورد اسم الأسد "بنكلة" في بداية باب الأسد والثور، ص ٤٥.

منهم رغبته في الذهاب معه، ليكون له عونا عند الملك في طرح ما يريد، كما أن أحدا منهم لم يحاول الاتصال بحاشية الملك من أجل أن ييسر له الدخول عليه أو يهيئ له الظروف، بل سار بمفرده إلى الملك، دون أن يستعين بأي شخص.

- أننا لا نلمس حضورا لحاشية الملك وقت طرح الحل من قبل دمنة والغواص، ولا نجد لها تأييدا للرأي واستحسانا ولا رفضا له واستهجانا، وهذا يمكن أن يفسر بأكثر من مسوغ، هل كانت الحاشية حاضرة والتزمت الصمت إيثارا للسلامة وخشية من تبعات الحل؟ حيث قد يُطلب منهم الاشتراك فيه، وهذا قد يعرضهم للخطر فآثروا السكوت. أم أنهم كانوا مغيبين عن المشهد، سواء برغبة الملك أو بطلب من صاحبي الحل (دمنة، والغواص)؟ أو هل كانت الحاشية قد خرجت بحثا عن قوت لها ولسيدها الأسد؛ ولذا لم تكن حاضرة. هذا ما لا نجد له تفسيرا داخل الحكاية، لا تصريحا ولا تلميحا. كما لا نجد وجودا لها أيضا، وتبدأ في الظهور حين أراد الملك أن يستبقي صاحبي الحل ليكونا بجوار الملك، ويبدو أن الحاشية بدأت تستشعر الخطر. وهذا ربما يعني أن الحاشية لا يظهر لها وجود فعلي طول فترة الأزمة.
- أن كلا من دمنة والغواص حين طرح الحل وقوبل بالموافقة من السلطان ذهب كل منهما منفردا للتخلص من مصدر الخطر، ولم يطلب قوة تعضد موقفه، سواء أكانت قوة مادية كقوة من المسلحين، أو يطلب عتادا، كما لم يطلب مشورة من أحد ممن حول السلطان أو غيرهم حول مدى صلاحية الحل للوفاء بالغرض.
- أن أحدا من حاشية الملك لم يحاول أن يحل المشكلة التي أرقت الملك، أو يطرح لها حلا بل تعايشت تلك الحاشية مع المشكلة، بل لم يزعم أحد منهم أنه حاول إيجاد حلول أو أن فكر فيها بصورة من الصور.
- أن كلا منهما لم يستخدم ألفاظا فيها سب أو شتم للثور على الرغم من عدوانه على الوحوش وتشريدهم عن مواضعهم.
- لا نجد وصفا حسيا للأسد ولا لابني آوى: كليلة ودمنة، ولا لأي من الشخصيات الأخرى التي وردت بالحكاية، أو أعمارها إلا ما قد يفهم ضمنا من سياق السرد. بل كان التركيز على ما يتسمون به من صفات عقلية أو خلقية نفسية: ذكاء أو دهاء أو حكمة أو مكر، سماحة أو قسوة...إلخ.

- أن كلا منهما لم يرسم صورة متخيلة لمجلس السلطان، وكرسي عرشه، وما يحيط به من فُرُش وبُسُط وأدوات وغير ذلك، وكذلك نظام جلوس وزرائه وترتيبهم ومراتبهم عنده.
- أن كلا منهما لم يشر إلى كيفية أيلولة الحكم إلى الملك الحالي من سابقه، كما لم يشر نتيجة لذلك لاحتفالات تنصيبه ملكا، ولكن يفهم من خلال سياق الحكاية أنه "جبلة وسعادة"، بما يعني أنه موروث، ولكن في كلا الحكايتين لا نجد وجودا لمن سيكون صاحب "جبلة وسعادة" في قابل الأيام.
- أنه لم تظهر أسود أخرى غير الملك أيا كانت علاقته بها، فلم تظهر بوصفها وزراء للملك أو جنودا أو معاونين له، ومن ثم فقد بدا الأسد وحيدا متفردا (وربما يشير بذلك إلى طبقة الأساورة التي يكون فيها المُلك) وما ظهر من نفس فصيلة الأسود هي أم الملك، وهي لا مطمع ولا مطمح لها في السلطة، وإنما كانت معاونا صادقا للملك في الوصول إلى الحقيقة التي عمَّاها دمنة حينا.
- لم يظهر في الحكايتين أن الملك قد ولد ولدا وأقيمت الاحتفالات ابتهاجا بمقدمه –لكونه سيكون خليفة للملك في لحظة ما من الزمن– وهي آتية مهما طال أمدها، على الرغم من أن الأحداث قد طال أمدها، ولم تكن في وقت قصير، سواء في الحكاية الإطارية أم المفرعة في كلا الحكايتين، ولم يرد ما يشير إلى فكرة توالي فكرة الملك في الفئة الأولى من الناس (أصحاب الجبلة والسعادة)، على الرغم من أن هذا من المسلمات في كلا الكتابين، ولكن لم يظهر ذلك نظريا ولا عمليا في الكتابين.
- أن الحاشية في كلا القصتين لم تسع للتخلص من دمنة في (كليلة ودمنة)، ومن (الغواص) في (الأسد والغواص) بالقتل بنفسها، وكان بإمكانهم التنصل من مسئولية قتله أو محاولة إخفائه أو محاولة ترهيبه كي يبعد هو من تلقاء نفسه عن الملك، ولكن ما اتبع في كلتا الحكايتين هو استخدام المكر والخديعة للإيقاع بهما، والتخلص منهما، دون أن يكون أحدهم طرفا مباشرا في ذلك.
- أن كلا من الملكين لم يلجأ إلى تعذيب خصمه أو إهانته أو تحقيره، ولم يسلط عليه أحدا من حاشيته عليه كذلك، بل ظل قيد الحبس حتى انكشفت الأمور وتجلت الحقائق، ولكنه لم يصب بسوء. فلم نجد تقييدا له بسلسلة مثلا من حديد، أو وضع قيود في يديه أو رجليه، ولا نجد إشارة لحراس غلاظ عليه، ولا نجد تجويعا له أو تعطيشا.

- إننا لم نجد أحدا في حاشية الأسد والغواص حاول ردع باقي الحاشية عن محاولة الإيقاع بالغواص تمهيدا للتخلص منه، وأما ما كان من أمر دمنة، فقد كان الناصح من خارج دائرة الحاشية، وكان أخا للمنصوح، ومن ثم كان حريصا على نصحه وإبعاده عما يضره ويضر بالملك والمملكة.
- أن الحاشية ظلت على تماسكها فيما بينها حتى النهاية فلم يخرج منهم من يفشي ما بيتته وأضمرته للغواص إلى السلطان أو للغواص نفسه، وبدا التخلص منه أمرا حيويا لهم، وأن بقاءه يهدد كيانهم جميعا، كما لم يظهر منهم من فكَّر أو حاول التراجع عما انتووه له بل ساروا في سعيهم للقضاء عليه إلى الغاية.
- أن كلتا الحكايتين لا تذكران نهاية الملك، إلا ما تمت الإشارة إليه في (الأسد والغواص) من أن الملك ظل يزور الغواص من فترة لأخرى، حتى فرق الدهر بينهما، دون أن نعلم من مات أولا. وكأنه لم يشأ أن يذكر أن الملك مات أولا تحرجا من ذلك، وربما كان الفيلسوف أطول عمرا، وإلا ربما وجدنا إشارة إلى أن الفيلسوف والعالم حين مات حزنَ عليه الملك؛ لما فقده من نصحه ورشده.
- أنه لم ترد شواهد دينية في كلا الكتابين، وإذا كان ذلك له ما يبرره في كليلة ودمنة؛ لأن صاحبه أراد كتابا يصلح لكل الأوقات، كما أن القصة الإطار، وما ورد قبلها مما رآه الفيلسوف من فساد الحاكم وظلمه رعيته، كانت على أيدي الفيلسوف بيدبا، ومن ثم كان طبيعيا أن يكون الكلام على ألسنة الحكماء والعلماء، ولكنا أيضا لا نجد مقولات للبراهمة على الرغم من أن بيدبا (رأس البراهمة)، كما لا نجد ذكرا لذلك في حكاية كليلة ودمنة نفسها، أما كتاب الأسد والغواص فكان من الطبيعي أن يستند مؤلفها إلى ثقافته التي نشأ في أحضانها وتربى عليها (القرن الخامس الهجري وبداية الربع الأول من القرن السادس على الأرجح)، خاصة أن ما يأتي في الكتاب من قيم يأتي متوافقا أكثره مع الثقافة الإسلامية كقيم الحق والعدل والنصيحة والمشاورة، والصدق، وتحمل السلطان لمسئولياته والمثقف لمسئوليته، وهذا كله له شواهده من القرآن الكريم والسنة النبوية، ولكننا لا نجد لذلك أثرا في الأسد والغواص؛ ولعل مردَّ ذلك، أن صاحب الكتاب بناه متأثرا بنهج كليلة ودمنة فابتعد عن إيراد النصوص الدينية في كتابه، ولعله أراد أن يكون كتابه صالحا لكل الناس في كل مكان وزمان، فلم يعتمد على نصوص دينية تخص أمة معينة من الأمم، وإنما اعتمد على أقوال فلاسفة وعلماء وحكماء كما فعل ابن المقفع في كليلة ودمنة.

- عدم وجود أي أثر لديانات وثنية، وما يتصل بها من آلهة وطقوس وشعائر، على الرغم من أنه من الطبيعي جدا أن يكون في كتاب ككتاب كليلة ودمنة وجود للديانات التي ينتمي إليها أصحابها وهذا لأكثر من سبب: أولها: أن الفيلسوف بيدبا في بداية كليلة ودمنة يأتي وصفه بأنه رأس البراهمة، وهذا يعني أن للرجل معرفة قوية بالدين ويعتقد بأن له دورا كبيرا في حياة الإنسان والأمة على الأقل على المستوى الأخلاقي، ومن ثم كان متوقعا أن تكثر الاستشهادات بأقوال الكهنة ومن شايعهم. آخرهما: أن للكهنة وضعا مميزا يجعل لهم تأثيرا في الحياة الاجتماعية والسياسية بحكم ما أوتوا من تقدير وتوقير واحترام من كافة الطبقات، ومن ثم كان متوقعا أن تظهر أقوال رجال الدين.

ولكن قد يثور بالذهن تساؤل، لماذا اختفى هذا الجانب من كتاب كليلة ودمنة؟ وهذا يجعلنا نطرح أكثر من فرضية، منها:

- أن ابن المقفع صفَّى الكتاب تماما من أية ديانات وثنية، فهو لم يكن يترجم في حقيقة الأمر ولكن أعاد كتابة كليلة ودمنة مع تغيير كبير جدا عن الأصل- كما أشار إلى ذلك محقق كليلة ودمنة عبد الوهاب عزام، ود. محمد رجب النجار في بحثه حكايات الحيوان في التراث العربي [1]، ومن ثم فقد حذف كل ما يتصل بالوثنية، إما أنه لم يكن يستهويه ذلك أو لم يكن راغبا فيه. وربما دفع ابن المقفع إلى فعل ذلك عدة أمور لعل منها:
- أنه لم يشأ أن يترك للطاعنين فيه وفي عقيدته والمتربصين به، مجالا للطعن فيه، أو التشويش عليه أو على الغرض من الكتاب، ومن ثم حرص على خلوه من تلك الوثنيات.
- أنه ربما رأى -بثاقب فكره وحنكته وفطنته- أن وجود تلك الوثنيات ربما يكون على حساب ما أراد توصيله للقارئ، وما ينبغي أن يلتفت إليه في الكتاب، فقد يبطئ السرد ويقلل من تماسكه، وقد يستميل الجانب الوثني بعض القراء على حساب ما أريد من الكتاب وما يهدف إليه. كما أن وجود تلك الوثنيات لن يقدم أي نفع للقارئ على مستوى الفكر أو العقيدة؛ لأن الكثرة الكاثرة التي ستقرأ هذه الوثنيات ستراها عقائد فاسدة.
- ربما أراد ابن المقفع أن يشير من طرف خفي إلى أن استقامة أمور الحكم أمر يشترك فيه كل الحكماء والعقلاء، وأن الأمر لا يحتاج بالضرورة إلى دين معين ليستقيم أمر الحكم أو أمر الحياة نفسها، يؤكد

[1] - محمد رجب النجار، حكايات الحيوان في التراث العربي: آفاق جديدة، مجلة عالم الفكر، ١٩٣إلى١٩٥.

ذلك أن ابن المقفع لم يستشهد بآيات قرآنية في كتابيه "الأدب الصغير" و "الأدب الكبير"، صحيح أنه تأثر بالقرآن الكريم لأنه ابن ثقافته العربية ولكن لم يستشهد أبدا بآيات القران الكريم في كتابيه.

- لا نجد وصفا مفصلا للأماكن الواردة في الحكايتين، ويبدو أن ذلك لم يكن مما اهتم به صاحبا الحكايتين، ذلك أن الأماكن لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما وردت في محاولة الإيهام بالصدق، فلا نجد وصفا لمكان لعرش الملك وذكر تفاصيله: كاتساعه أو وصف مقعد السلطان ومقاعد الوزراء والقادة، ومداخل عرش السلطان ولا فرشه، ولا زيناته ولا ستائره، لا على المستوى الإنساني في كليلة ودمنة في حديث بيدبا الفيلسوف مع دبشيلم الملك، ولا على المستوى الحيواني في كليلة ودمنة أو الأسد والغواص، ولا نجد شيئا قريبا من ذلك فيما يخص أماكن سائر العنصر الحيواني في الحكايتين.
- لا نجد تحديدا يتعلق بالزمان الذي تدور فيه أحداث الحكاية الإطارية إلا ما ورد من ذكر الملك دبشليم الظالم، (الذي يبدو أنه ورد في الحكاية ليضفي عليها شيئا من المصداقية التاريخية، وتعميق الإيهام بأن الكتاب مترجم عن الهندية) لكننا على كل حال لا نجد تأريخا لذلك؛ حيث لا نجد مثلا ذكرا لقرن بعينه ولا سنة بعينها في الوقائع المرتبطة بالحكاية الإطارية، بما يعني محاولة النأي عن محاولة التحقيق التاريخي للوقائع الواردة في الحكاية، إذ ليس الكتاب كتاب تاريخ وما تم الاتكاء عليه مجرد سند تاريخي يسهم في بناء إطار الحكاية. أما في الأسد والغواص فالأمر ذاته ينطبق عليه، ولكن يبقى بعض الإشارات التي تؤطر الفترة المتوقع كتابة الحكاية فيها من خلال ما ورد من حكايات فرعية متنوعة يعود لتاريخها لبعض الوقائع أو الأشخاص الذين لهم وجود حقيقي، ولكن لا نجد أيضا تأريخا لوقائع وأحداث الحكاية.
- كما يلحظ أن كلتا الحكايتين يأتي السرد مستمرا لا ينقطع، وإن كان على شكل فصول، ولكن لا تذكر الحكايتان انقطاع السرد ثم العودة لاستكماله لعلل مختلفة مثل النوم مثلا، أو حدوث حادثة طارئة منعت استكمال السرد، أو تحول السرد من الحكاية الإطارية إلى حكاية إطارية أخرى مع عدم العودة للحكاية الأولى، أو اقتراح من السارد أو المسرود له بالتوقف عن الحكي للراحة أو النوم أو لوجود عارض يعرض له أو لأي داع آخر.
- إن كلتا الحكايتين لم تطل كثيرا فيما يتعلق بمسار العلاقة بين الأسد والثور أو بين الأسد والغواص في حالتها الإيجابية، وإنما جاء في كلتيهما قصيرا وإن دل بشكل قوي على متانة العلاقة، ولكننا لم نجد

مساحات واسعة من الصفاء والتعاون في الحكاية من خلال الأحداث والمواقف قبل الانتقال إلى دور الحاسدين والمبغضين في تمزيق العلاقة. بل جاء الكلام عن صفو الحياة وحسن العلاقة بينهما في فقرة واحدة ثم تم الانتقال إلى لعبة البطانة في إقصاء الوافد الجديد.

خاتمة ونتائج كليلة ودمنة والأسد والغواص

عرض البحث لتجليات كليلة ودمنة في الأسد والغواص. وقد ظهر أن قصص الحيوان عرفته الآداب العالمية بصور مختلفة ومنه الأدب العربي بطبيعة الحال، ولكن كان لنقل كليلة ودمنة من البهلوية إلى العربية أثر عظيم وتحول كبير في حكايات الحيوان في أدبنا العربي والآداب العالمية. وتجلت العلاقة بين الكتابين في عدة صور، فقد ظهر في عتبات النص (عنوان الكتابين، وعناوين الفصول، مقدمة الكتابين)، كما تجلى في البنية الكبرى للحكايتين، في البناء الكلي للحكاية، وفي علاقة المثقف بالسلطة ومشروع المثقف فيهما. كما تشابهت القيم فيهما، مثل احترام العقل، والعلم والعمل به، والمشورة، والرأي...إلخ. رغم اختلاف الحضارتين، كما تشابهت الخطوط العامة وعدد لافت من الأفكار في مسار الحكايتين من مبتداها إلى منتهاها، وبرزت بعض التشابهات اللغوية في التراكيب أو التشبيهات، ثم جاء التشابه في المسكوت عنه؛ حيث كان بإمكان الأسد والغواص الثاني أن يختطّ مسارا مختلفا في بعض الجوانب عن كليلة ودمنة ولكنه سكت عنها. وقد كانت أبرز نتائج البحث ما يأتي:

- شاعت حكايات وقصص الحيوان لدى العرب كما ذاعت لدى غيرهم؛ وعرفوه تحت أسماء متعددة مثل خرافة الحيوان، ومنها الخرافات على ألسن البهائم والسباع والطير، ومنها" نوادر من حيل الحيوان".
- نقل ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة للعربية من البهلوية عن الهندية، ولكن يكاد يكون كله لابن المقفع، فقد أراده أن يكون أداة في مواجهة الاستبداد آنذاك (ولم يكن كتابه هذا معزولا عن اهتمامه بالسياسة فيما كتب أو ترجم). وكان للكتاب أثر عظيم على الكتابات التي جاءت بعده ووظفت الرمز هروبا من المباشرة، منذ نقله ابن المقفع حتى عصرنا الحديث.
- برزت العلاقة بين الكتابين في عتبات النص، خاصة في عنوانيهما، كما برز بعض التشابه أو المغايرة المقصودة عن كليلة ودمنة في عناوين الفصول، ومقدمة كلا الكتابين، (خاصة توظيف

التحايل في تحقيق هدف الكتابين، أو طريقتهما في إيراد الحكمة، أو الالتفات بشدة لدور القارئ والغاية من الكتاب).

- برز التشابه في البنية الكبرى لكلا الكتابين، وهذا التشابه قد يكون على المستوى البنية الإطارية في كلتا الحكايتين: حكاية دبشليم الملك في "كليلة ودمنة" (إطار إنساني)، وحكاية "الأسد والغواص" (إطار حيواني) أو بين الحكاية المفرعة من الإطار الإنساني التي حدد نطاقها الملك بسؤاله الفيلسوف –هي إطار حيواني (الأسد والثور)–، مع الأسد والغواص. كما قد يكون التشابه الإطاري بين الحكاية التي وردت في كليلة ودمنة تحت باب (الأسد وابن آوى)، وهي نمط حيواني أيضا مع "الأسد والغواص".
- حرص المثقف في كليلة ودمنة(بيدبا)، والغواص في "الأسد والغواص" على أن يكون بعيدا عن السلطة، ولكنه حين وجد واجبا تجاه مجتمعه نهض لأدائه على الرغم من تيقنه بما سيلاقيه من مصاعب ومخاطر، إيمانا منه بأن ما تعلمه من علم يجب أن يكون لخدمة المجموع وأن لا قيمة لعلم بلا عمل. بينما حرص دمنة في كليلة ودمنة على أن يكون تحركه تجاه السلطة وخدمتها لمصلحته هو.
- قَبِل المثقف (بيدبا) أن يظل مستمرا مع السلطة في الأسد والغواص بعد نجاحه في إقناع الملك بضرورة السير في الحكم سيرة حسنة، واستمرت العلاقة بينهما ليحقق مشروعه الإصلاحي، بينما رفض الغواص "في الأسد والغواص" أن يكون جزءا من السلطة مباشرا من السلطة وفضّل أن يكون داعما لها بالرأي والحكمة والتجارب، مما يجده في الكتب ولكن العلاقة بينهما لم تدم فقد أفسدتها البطانة بحيلها ومكرها، فاعتزل العمل مع الملك ولكن دامت العلاقة بينهما. بينما كان مآل دمنة هو الموت حين جعل همه تحقيق مآربه بمكره ودهائه على حساب الملك والمملكة فكان فيها مهلكه.
- رغم التباين الحضاري والزماني والمكاني بين "كليلة ودمنة المنقول من الهندية للفارسية ثم للعربية وكتاب الأسد والغواص (في القرن الخامس الهجري) إلا أنه سادت مجموعة من القيم في كلا الكتابين، بما يعني أن العقل الإنساني والحياة الإنسانية عامة لديها مجموعة قيم مشتركة فيما بينها أو بين السلطان والرعية يمكن أن تحتكم إليها. أبرزها: تعظيم العقل الإنساني، العلم والعمل به،

المشاورة، النصح، الرأي، الحيلة، التحذير من صحبة السلطان، الحذر من البطانة، حاجة الملوك لأنواع مختلفة من البشر.

- وجد تشابه واضح في ملامح الخطوط العامة لبناء الحكاية في كلا الكتابين وعدد من الأفكار وأبرزها: ذكر عناصر الشخصيات الرئيسة في مفتتح بالحكاية، تمايز الفردي في داخل الجماعي، القول بحاجة الملك إلى فئات مختلفة، استخدام التقرب من الملك ليكون وسيلة لتحقيق الغرض، ضرورة انتهاز الفرصة لتحقيق الغرض، حسن ظن الملك بهما بعد سماعهما، موقف الناصح من الاستمرار في خدمة الملك، اكتساب الثقة ودواعيها، النصح بالبعد عن القتال واللجوء للحيلة، أثر الإلحاح بالكلام على الملك من قِبل البطانة، الغضب عن علة أو غير علة، حسن الظن بعواقب إخلاص نية العمل ودقة أدائه.
- وجد بعض المواضع بها التشابهات اللغوية برزت في التشابه في بعض التراكيب التي جاءت بينتها على شاكلة واحدة في كلا الكتابين، والتشبيهات.
- بعض عناصر المسكوت عنها دليل على وجود تشابه بينهما، إذ كان بإمكان الراوي في (الأسد والغواص) أن يتخذ مسارات مختلفة عما ورد في (كليلة ودمنة)، خاصة في بعض التفاصيل التي لا تخلخل الإطار العام ولا تعوق سير الحكاية. ويبدو إغفالها ليس لأن سياق الحكاية يقتضي ذلك وإنما يأتي ذلك –غالبا– من باب السير على نهج كتاب كليلة ودمنة.

المصادر والمراجع:

المصادر:

- ❖ كليلة ودمنة، تحقيق عبد الوهاب عزام، وتقديم د. طه حسين، دار المعارف، مصر. .
- ❖ كليلة ودمنة، ضبطه وتصحيح محمد حسن نايل المرصفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة ذاكرة الكتابة العدد (٢٥) الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.
- ❖ الأسد والغواص. مؤلف مجهول، تحقيق د. رضوان السيد، دار ابن الازرق، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢م.

المراجع.

٢. د.إبراهيم القادري بوتشيش، علاقة التاريخ بالسيمولوجيا: التاريخ العربي الإسلامي نموذجا، سلسلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، العدد١٧٦، أكتوبر، ديسمبر٢٠١٨م.

٣. أحمد أمين، ضحى الإسلام، طبعة مكتبة الأسرة، ج١.

٤. د. أحمد محمد سالم، دولة السلطان: جذور التسلط والاستبداد في التجربة الإسلامية، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٤م

٥. أميرة الكولي، البنى الحكائية في الأدب العربي، دراسة في ضوء المنهج البنيوي، دار التنوير، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٦. – بسمة عروس، التفاعل في الأجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة من القرن الثالث إلى القرن السادس، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس٢٠٠٨م.

٧. " الجاحظ، أخلاق الملوك، تحقيق وتقديم: نسيم الهواري، دار المعارف، مصر، ٢٠١٩م

٨. – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب، والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، اعتني به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، د.ت عمان.

٩. د. خولة شخاترة بعنوان: كليلة ودمنة والأسد والغواص: ملامح من علاقة المثقف بالسلطة (مجلة البلقاء للدراسات والبحوث، المجلد١٢، العدد١، رجب ١٤٣٨هـ، أغسطس ٢٠٠٧م)

١٠. رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك في السياسة وتدبير المملكة، تحقيق محمد سليم سالم، ودراسة د حسام أحمد عبد الظاهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التراث الحضاري، (١١) الطبعة الثانية، ٢٠١٨م.

١١. د سامية سلام، السلطة والدولة بين المعتزلة وإخوان الصفا، مصر العربية للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى ص ٢٠١٥م.

١٢. د. سمر الديوب، النص العابر، دراسات في الأدب القديم، سلسلة الدراسات الأدبية، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤م.

١٣.سهل بن هاورن، كتاب النمر والثعلب، تحقيق وتقديم عبد القادر المهيري، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٣.
١٤.د. عبد العزيز شبيل: التناص والتراث العربي بين كليلة ودمنة والأسد والغواص، حوليات الجامعة التونسية، العدد٥٢، يناير ٢٠٠٧م.
١٥. د. عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري: جدلية الحضور والغياب، دار محمد علي الحامي، صفاقص تونس، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية سوسة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م
١٦.شعيب حليفي، هوية العلامات: في العتبات وبناء التأويل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.
١٧.صبجي الطعان، بنية النص الكبرى، عالم الفكر، الكويت، العدد ١-٢، يوليو ١٩٩٤م
١٨. – د شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، الطبعة العاشرة، ١٩٩٠ ص ٥١٦
١٩.د د. علي عبد المعطي محمد، فلسفة الفن: رؤية جديدة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢.
٢٠.عصام محمد الشنطي بحث بعنوان تراث الإسلام السياسي في المشرق : قمم وتحولات. ضمن كتاب تراث العرب السياسي، ندوة قضايا المخطوطات، تحقيق وتحرير د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
٢١. قحطان صالح الفلاح، الأدب والسياسة، قراءة في قصة النمر والثعلب لسهل بن هارون، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧، العدد الأول والثاني، ٢٠١١م
٢٢.د.قصي الحسين، تفكيك النص وتفكيك المصطلح النقدي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، العدد١١٢، ١١٣، إبريل ٢٠٠٠م .
٢٣.د. مجدي شمس الدين، القص بين الحقيقة والخيال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية، ١٩٩٠م. ص١١٠.
٢٤. د مصطفى عبد الشافي الشورى، التراث القصصي عند العرب، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، سلسلة ذاكرة الكتابة(١٢) الطبعة الثانية ١٩٩٩م. ص٥.

٢٥.د. محمد رجب النجار، حكايات الحيوان في التراث العربي:"آفاق جديدة"، عالم الفكر، المجلد الرابع والعشرون، العددان الأول والثاني، (يوليو، سبتمتبر،أكتوبر، ديسمبر)،١٩٩٥م
٢٦.ابن المقفع، الأدب الكبير، محمد حسن المرصفي، مؤسسة الهنداوي للطباعة والنشر، ٢٠١٤م ص ٣٥
٢٧.ابن المقفع، الادب الكبير، تحقيق محمد نايل المرصفي، مؤسسة هنداوي،٢٠١٦.
٢٨.د. محمود علي مكي، التراث السياسي في المغرب والأندلس: قمم وتحولات، ضمن كتاب تراث العرب السياسي، ندوة قضايا المخطوطات، تحقيق وتحرير د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
٢٩. د. ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.
٣٠.نورا محمد سعيد، كليلة ودمنة بين الفارسية والأردية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨م، ص٣١.
٣١.ياسين النصير، الاستهلال: فن البدايات في العمل الأدبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، سلسلة كتابات نقدية، العدد(٧٥) يونيه ١٩٩٨م .
٣٢. د. وضحا محمد عواد المحارب، جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني بين الاستبداد والاغتراب، مجلة جامعة الناصر، العدد الخامس، المجلد الأول، يناير، يونيو٢٠١٥م.